الفصل الأول

تعريف الأخلاق

الخير والشر والفضيلة والرذيلة

١ . مايدور حول الأخلاق من الشكوك فى الوقت الحاضر – ٢ . تعريف الأخلاق ، الخير والشر – ٣ . الأخلاق الفردية والأخلاق الجمعية .

---

١ – ما يدور حول الأخلاق من الشُّكوك فى الوقت الحاضر

سيَجِدُ فلاسفة المستقبل ، حينما يكتبون تاريخاً عن أضاليل الروح البشرية ، وثائقَ ثمينةً فى رسائل علم اللاهوت والسحر والأخلاق ، وعلى ما تُورِثه قراءة هذه الرسائل من كبيرِ مَلَالٍ نرى أنه لا بدَّ منها لإثبات ما يَنْجُم عن أبسط الأمور من تفسيرات مُخْتَلَّة ولإثبات درجة الصعوبة فى الجَدَل ببراهينَ عقليةٍ حول الحوادث التى هى وليدة المُؤَثِّرَات الدينية والعاطفية والجَمْعِيَّة المستقلةِ عن العقل .

وسار علماء اللاّهوت وعلماء الأخلاق على غِرَار أرسطو وأفلاطون فى دِراسة الأخلاق من غير أن يَقْدِروا أن يقيموا ما هو ثابتٌ منها ، والدليل على ذلك ما تُبْصِره من الفوضى العميقة التى لا تزال باديةً فى الوقت الحاضر حَوْلَ هذا الموضوع القديم .

وتتجلّى شكوكُ الساعة الراهنة فى تضاعيف طائفة من المؤلفات ، ولا سيما فى الخُطَب التى تُلْقَى فى عظيم مؤتمرات الفلسفة والأخلاق، ولا شىء أدعى للحُزْن، مثلاً ، من مطالعة المَحْضَر المشتمل على الخُطَب التى نُطِقَ بها فى مؤتمر التربية الخُلقيّة الدَّوْلِىّ الذى عُقِد فى لاهاى سنة ١٩١٣ (١) ، وفى ذلك المؤتمر اشترك جهابذة كمسيو بُوتْرُو و بوِيسُون، فما كان من تناقضهم فى معظم المسائل الأساسية وارتباكِهم حَوْلَها يُثْبِت مقدار الفوضى التى تُفَرِّق بين النفوس فى الزمن الحالىّ .

ومما انْجَلَى عنه ذلك المؤتمر ، على الخصوص ، هو تبَدُّد الأمل فى أن العِلم يمكنه أن يُنير تلك المسائل ، « ففى الأمة يبدو ما هو غريبٌ من شعور الجزَع والهَلَع ، وهذا الشعور يُصيب حتى المؤمنين ، حتى الأصفياء ، والإيمانُ العقلىّ يَنْثَنِى ويَحِلّ الشكُّ والتردد محلّ الثقة والحماسة ... ويألَم مسيو بُوتْرُو ، مثلَنا ، من الفوضى الخُلقية المتيدة ، ولكنه لا يَقْنَطُ أبداً » .

ويَحِقُّ لمسيو بُوتْرُو ، لا ريب ، ألاّ ييْأَس وأن يُصِرّ على مَيْله إلى التوفيق ، ومن المؤسف أن يأتىَ مسيو بُوتْرُو ، فى سبيل هذا التوفيق ، بمبادئَ مبهمةٍ إلى الغاية مقتبسةٍ من علم لاهوتٍ هَرِم ، فقد قال : « إن الأخلاق تنشأ عن الدين ، وذلك لأن الله هو الخيرُ بعَيْنِه وهو الكمالُ بعينه » .

وقال مُدَوِّن محاضر ذلك المؤتمر مستنتجاً : « لاَحَظَ مسيو بُوتْرُو درجةَ البَلْبَلَة التى ساورت مؤتمرَ لاهاى مع ما كان يَسْعَى إليه من التوفيق ، ولم يُرْضِ هذا المؤتمرُ أحداً من الذين اشتركوا فيه طَمَعاً فى إعادة التوازن إلى النفوس التى آلمتها الفوضى الخُلقية فى الحياة الحديثة » .

---

(١) نشر ذلك المحضر فى عدد المجلة الفلسفية الصادر فى شهر يناير سنة ١٩١٣ .

ولم تَلْبَث تلك المناقشات الدَّعِيَّة أن جاوزت سياج البرلمان ، ففى ٢١ من يناير سنة ١٩١٠ شَرَح خطباء فى البرلمان أُسُسَ الأخلاق فوَجَدوا أفاضل الفلاسفة لم يكتشفوا أىَّ واحد منها .

ومما أثبتوه ، بِنُبَذٍ اقتطفوها من أساتذةٍ فى الجامعة لا خِلافَ فيهم ، أن أساتذتنا فى الفلسفة اجتمعوا برآسة عميد كلية الآداب مسيو كِرْوَازِه لتعيين أُسُس الأخلاق فانتهوْا إلى نتائجَ يُرْثَى لها .

قال مسيو ج . بِيُو : « أتى كلُّ واحد بما عنده من أنوار ، وأولئك أناسٌ ذوو ثَقافة عقلية عالية وذوو استقامة سامِيَة ، فهم بعد أن جَدُّوا كثيراً فلم يَجِدوا شيئاً شَعَروا بالخيبة فخرجت من أفواههم الكلمةُ الواحدة : مستحيل ! »

« وقال أحدُ أولئك ، وهو ليس ممن يجىء فى المرتبة دون أولئك ، وهو مسيو بُوتْرُو : « وما الفائدة ، وما العلة فى إطلاع الجمهور على اختلاف العلماء فى مبادىء السلوك فى الحياة ؟ » وما انفكَّ الاعتراف بالعجز تَلْفِظه الأفواه ، حتى إن مسيو بَايو قال : « انصرفَ مَنْ كان يجب عليهم أن يُنِيروا السبيل ، فتركوا الكثلكة ، ولكنهم لم يَلْبَثوا ساعةً من نهار حتى أدركوا أنهم لم يُقيموا شيئاً آخر بدلاً منها ، وأنهم لم يَسِيروا فى حياتهم إلى أبعدِ ما تَهْدى إليه عادات الإحساس والتفكير القديمة ، وهكذا عُدْتَ تَرَى خيلاً تسوق العربةَ بلا سائق ، واذْكُرْ ، إذَنْ ، مناهجَ الأخلاق التى استنبطها المذهب العقلىُّ من الأخلاق الربانية فرَكَمَها ، فقد ابتدع مسيو بورجوا آدابَ التضامن فنالت الحُظْوَة ذات يوم ، ثم أُعْرِض عنها ، بعد

أن أعلن مسيو جاكوب ، وقد رُئِيَ أنه من أولى العبقرية ، أنها مما لا يُسَلَّم به ، وقيل بالأخلاق العلمية ، ثم أعلن مسيو هنرى پوانكاره ، مع الأسف ، عدمَ وجود أخلاق علمية .

« وإليكَ ، أيضاً ، الأخلاقَ التَّلْذَاذِيَّة ، والأخلاقَ النفعية ، وأخلاقَ مسيو كونْب الماسونية ، وإليك وإليك ، فالأمرُ هو « ضوضاء أدمغة » كما قال مُونْتِين » .

ويكتنف تعليمُ الأخلاق أفضلَ الأساتذة اكتنافه محترفى السياسة ، وتَجِدُ دليلاً جديداً على ذلك فى مُذَكِّرَةٍ حديثة نشرها عميد كلية الآداب العَلاَّمة مسيو أَلْفريد كِرْوَازِه حَوْلَ « الارتباك الخُلقى » ، قال مسيو كِرْوَازِه :

« ترى علم الأخلاق فى جميع البرامج ، فهو يُدَرَّس فى جميع صفوف المدرسة الابتدائية ، والمدرسةِ الثانوية كشىء منفصل عن الدين ، وماذا يَصْنَع المعلم تِجاه هذا العمل الجديد ؟ وماذا يكون تفكيره فى أمره الخاصّ وماذا يقول لتلاميذه ؟ هو مُلْزَمٌ بالحياد الدينىّ ، فباسم أىِّ مبدأ غير دينىٍّ يُعَلِّم الواجب والفَرْضَ الخلقى ؟ هو يسأل الفلاسفة فيَظْفَر بأجوبة متهادمة ، يَظْفَر بالروحية الانتخابية وبالكَنْتِيَّة وبمذهبِ غُويُو ونِيتْشِه الحديثيْن وبالأخلاق العلمية وبنظرية علم الطبائع الخ ، فهنالك يَعْتَرِيه الارتباك والشكّ ، ويقوم بعض تلك المذاهب على مبادىء ما بعد الطبيعة التى تَلُوح له باطلةً ، ويَظْهَر بعض تلك المذاهب بعيداً من مبادىء الأخلاق التى تُعَدُّ جوهرية ، فماذا يصنع ؟ يحاول أن يُفَكِّر بنفسه فيَشْعُر بعُسْرِ شأنه فيُخْدَع فى بعض الأحيان » .

ونحن ، حين نَدْرُس أُسُسَ الأخلاق الخيالية وأُسُسَها الحقيقية ، نَبْحَث فى صدور رِيَبِ الأساتذة والمشترعين الراهنة عن الوَهْم الشائع اليوم والقائم على الاعتقاد القائل بقيام الأخلاق على العقل مع أنها تُشْتَقُّ من عناصرَ مستقلةٍ عن العقل .

والمناهجُ الحاضرة لدراسة الأخلاق إذ لم تُؤَدِّ إلى غير تلك الشُّكُوك فإننا نحاول الانتفاع بغيرها .

٢ — تعريفُ الأخلاق ، الخير والشرّ

نرى أن نُبْصِر عناصرَ الأخلاق قبل أن نَدْرُس أُسُسَها ، فنسأل عن معنى كلمات الخير والشرِّ والفضيلة والرذيلة المستعملة فى كلِّ يوم .

إذا ما نظرتَ إلى المعاجم وجدتَها تُعَرِّف علم الأخلاق بعلم قواعد السلوك التى يجب اتباعها لعمل الخير واجتناب الشرِّ ، وتُعَرِّف الفضيلةَ بالاستعداد النفسىِّ الذى يَحْفِز النفس إلى عمل الخير واجتناب الشرِّ ، أى مراعاةِ قواعد الأخلاق ، وتُعَرِّف الرذيلةَ بما هو عكس ذلك .

ولكن على أىِّ شىء يقوم الخير والشرُّ ؟ كان يلوح تعريفُهما ، المزعجُ اليوم ، حتى لأُولِى الأبصار ، أمراً بسيطاً إلى الغاية لعلماء القرن السابق ، وإليكَ ، مثلاً ، كيف أَوْضح أحدُ مشاهير هؤلاء ، برْتِلُو ، مسئلةَ الأخلاق فى بضعة أسطر ، قال برْتِلُو : « إن شعور الخير والشرِّ من مقومات الطبيعة البشرية ، فيستحوذ علينا هذا الشعورُ مستقلاً عن كلِّ عقل واعتقاد وعن كلِّ فكر فى الثواب أو العقاب ، ومن أَجْل ذلك اعْتُرِف بمبدأ الواجب ، أى بقاعدة الحياة العملية ، كأمر أصلىّ خارج عن الجَدَل وفوْقَ الجَدَل » .

ولا شيءَ أبسطُ من ذلك كما ترى ، ولا تُبْصِر فيلسوفاً عصرياً لا يجِد المزاعمَ السابقة عاريةً من الدليل مخالفةً حتى للمعارف القائمة على الترصد والمشاهدة .

ومن المُمْتنع ، كما يلوح ، أن يُقابَل بين التعريف الذى أتى به بِرْتِلُو للخير والشرّ منذ خمسين سنة والتعريفِ الذى جاد به حديثاً عالِمٌ آخرُ ، أى مديرُ مُتْحَف التاريخ الطبيعى مسيو پيريه .

قال پيريه : « إن مبـدأ الخير والشرّ هو مبدأ تصورناه لتسهيل صِلاتنا الاجتماعية ، فنحن ندعو بالخير ماهو نافع للمجتمع ، وندعو بالشرّ كلّ عمل يُوجِب تضحيةَ المصلحة الاجتماعية فى سبيل المصلحة الفردية » .

فالفضيلةُ والرذيلة تَدُلاَّن ، إذَنْ ، على الأعمال النافعة للمجتمع أو الضّارَّة به ، والإخلاصُ لمصلحة المجموع والوطنيةُ والأمانة إذ إنهـا ضرورية للمجتمع عُدَّتْ من الفضائل ، والأَثَرَةُ والعُنْف والسَّرِقة إذ إنها شُؤْم عليه عُدَّت من الرَّذائل .

بَيْدَ أن هذه النظرية لا تُطَبَّق على غير الأخلاق الجَمْعِيَّة ، وهى لا تُنير تكوين الأخـلاق الفردية أبداً ، والأخلاقُ الفردية والأخلاقُ الجَمْعِيَّة هما ما يَجِب أن يفرق بينهما بوضوح كما سنرى ذلك .

٣ — الأخلاقُ الفردية والأخـلاق الجَمْعِيَّة

اعْلَمْ أن الأخلاق الاجتماعيـة التى أقَرَّتها القوانين لا تَنْظُر إلاَّ إلى المصلحة العامة ، أى إلى القواعد الضرورية لبقاء المجتمع ، فتُحَرِّم السَّرِقة والقتل والغِشّ التجـارىّ ، وتطالب الفرد الذى تُمِينه بالدفاع عن المجتمع ، وتُضَحِّى به فى ميادين

القتال عند الضرورة ، ولا تَذْهَب تلك الأخلاق إلى ماهو أبعد من ذلك ، فلا تبالى بالمصالح الفردية إلا إذا تصادمت هى والمصلحة العامة .

وليس من شأن قوانين الأخلاق الاجتماعية أن تُحْدِث خِلالاً كالنُّصْحِ والصَّلاح والإنصاف ومَحَبَّة الآخرين الخ ، وفضائلُ كهذه ذاتُ تكوينٍ يختلف ، أيضاً ، عن الفضائل الجَمْعِيَّة كما نُبَيِّن ذلك عما قليل .

إذَنْ ، يجب أن يُفَرَّق بوضوح بين الأخلاق الفردية والأخلاق الجَمْعِيَّة كما قلتُ ذلك غيرَ مرة ، وعلى ما لهذا التفريق من أهمية تَجِده مُهْمَلاً على العموم .

وليس التفريق بين الأخلاقين أمراً بارزاً فى ميدان العمل على الدوام ، وذلك لأن أكثر الأخلاق فردية يَظَلُّ مُشْبَعاً من المُؤَثِّرات الجَمْعِيَّة التى لا يستطيع أحد أن يتخلص منها ، وتَحْمِل هذه المؤثِّرات أكثرَ الأفراد أَثَرَةً على شىء من التضحية فى سبيل المصالح العامة .

وللفرد أن يناقش فى أخلاقه الشخصية ما كان له أن يختار ، أو يعتقد أنه يختار ، قواعدَ سلوكه ، وأما الأخلاق الجَمْعِيَّة فهو مُكْرَهٌ على الخضوع لها ما كان المجتمع ، الذى هو سبب حياته ، هو الذى يَفْرِضها عليه .

والأخلاقُ الجَمْعِية ، وهى مستقلة عن إرادتنا الاجتماعية ، هى وليدة مختلف الضرورات المُقَدَّرة ، والمجتمعُ ، لأنه يَوَدُّ البقاء ، مُضْطَرٌّ إلى اتخاذ بعض القواعد الثابتة والمحافظة عليها ، ولا ضَيْرَ فى أن تكون هذه القواعد مُضِرَّةً بالمصلحة الفردية أو غيرَ مُضِرَّة بها مادامت ضرورية لبقاء المجتمع .

وكثيرٌ من المبادىء الجَمْعِيَّة إذ يتضمن ضِيقاً للغرائز الطبيعية وقسراً لها وزجراً

لها فإن المجتمع وحده هو القادر على فرضها فى سبيل المصلحة العامة بما يسنه من القوانين وما تنص عليه هذه القوانين من العقوبات ، والمجتمع يقيد سلطانه فى سبيل مصالح المجموع بحكم الطبيعة كما ذكرت ذلك .

وقواعد الأخلاق الجمعية إذ كانت فى منجى من الجدل فإن من العبث أن يبحث فى مطابقتها للعقل والعدل ، فيكفى أن يعلم أمر ضرورتها ، والأمم إذ كانت تعيش من السلب والفتوح تقريباً كقد ماء الرومان عدت ما تقترفه من سفك الدماء والسرقة ملائماً للأخلاق ملاءمة تامة ، لاقتضاء المصلحة العامة ذلك .

وتتبع الأخلاق الإجتماعية الطبائع بحكم الطبيعة ، حتى إنها ليست غير عنوان لها ، وقد يحدث أن تظل باقية بعد تغير الطبائع ، ولم تعم الواجبات الخلقية القديمة أن تعد من الأوهام إذ ذاك فلا تبقى محترمة على الرغم من القوانين التى تحاول أن تمسكها ، ومن العبث أن تهدف القوانين ، التى تأتى بعد الطبائع على الدوام ، إلى مكافحة تغير الرأى العام لأنها دونه قوة فلا تجد قضاة يحكمون بها فتغدو غير مؤثرة ، ومن هذا القبيل ، مثلاً ، أن هنا لك أعمالاً ، كالمبارزة وزنى الأزواج على الخصوص ، عدت من الجنايات التى يعاقب مقترفوها بعقوبات شديدة فصارت من الجنح التافهة التى تعدل المحاكم عن تعقب مجترحيها أو التى لا تفرض عليهم غير غرامة طفيفة .

ومنذ زمن طويل عدت الضرورات الاجتماعية سبب الأخلاق الحقيقى ، فقد جعل أفلاطون بروتوغوراس يقول إن العدل لم يحدث أول وهلة قط ، بل هو وليد الاحتياجات الاجتماعية ، ومما حققه ذلك الفيلسوف أن معظم الناس لا يحوزون من الأخلاق سوى الذى أقرته العادة والرأى العام والقانون .

وعلى ماتراه من عجز القوانين عن تغيير الطبائع ، وعلى ما تصنعه القوانين من تأييد العادات فقط دون أن تحدثها يمكنها أن تتدخل تدخلاً نافعاً، مع ذلك، عندما يميل بعض الآراء إلى أن يكون عامًّا، أى قبل أن يصبح عامًّا ، ومن ذلك أن قوانين سُنّتْ فى بعض دول أمريكة و بلاد إسكندينافية لتقييد بيع المسكرات ومن ثمّ تنقيص الإدمان الذى هو أصلُ كثير من الجرائم فغدا بَلِيَّةً قومية، ولكن تدابيرَ رادعةً كهذه لم تُمكِن إلا بمؤازرة قسم كبير من الرأى العام، وهى لا تُحَقَّق فى بلد كفرنسة حيث لم تُجْمِع الأفكار عليها ، وهذا ما رُئى حينما وافق البرلمان على إلغاء امتياز مُقَطِّرى الكَرْم الذى هو من أسباب الإدمان فاضْطرّ إلى إلغاء ما قرّره من قَوْره .

obeikandl.com

الفصل الثانى

أخلاق المجتمعات الحيوانيـــة

والمجتمعات البشرية

١ . أخلاق المجتمعات الحيوانية ــ ٢ . أخلاق المجتمعات البشرية وتقلبها وثباتها .

١ ــ أخلاقُ المجتمعات الحيوانية

تُنيرنا مناقشات ما بعد الطبيعة قليلاً حَوْلَ طبيعة الأخلاق ، وذلك لدِراسة الأخلاق خارجَ مِنْطَقة الحقائق على العموم ، ولابدَّ من دِراسة الأخلاق فى المجتمعات البشرية ، وفى المجتمعات الحيوانية أيضاً ، لفَهْم تكوينها .

وخُيِّل إلى علماء اللاهوت والفلاسفة ، ولا يزال يُخَيَّل إلى الكثيرين منهم ، أن الإنسان نسيجُ وحدِه فى الخِلقة ، فهو ذو مَلَكات لا صِلَة بينها و بين مَلَكات الموجودات الأخرى ، واليوم أَثْبَت العِلم ، بما فيه الكفاية ، أن الإنسان ذو مشاعرَ قريبةٍ من مشاعر الحيوانات وأنه لا يختلف عن الحيوانات إلاَّ بسُمُوِّ عقله .

ولو دُرِس عِلم النفس الحيوانىُّ قبل زمن ، وهو الذى لم تَكَدْ تُرْسَم خطوط البحث فيه ، لاجْتُنِبَ كثير من الأغاليط ، فما كُنْتَ تَرَى علماءَ ،

كديكارت ، يَعُدُّون الحيواناتِ من الآلات الصِّرْفة ، ولا مفكرين ، ككَنْت ، يَعْزُون الأخلاق إلى إلهٍ منتقم .

وَاسْبُرْعان ما أدى البحث الدقيق فى المجتمعات الحيوانيـة إلى إثباته أن أخلاق هذه المجتمعات هى ، كأخلاق الإنسان ، مُشْتَقَّة ، بحكم الضرورة ، من طِراز حياتها ومن البِيْئة التى تتطور فيها .

ودِراسةُ الأخلاق فى المجتمعات الحيوانيـة ومعرفةُ أوجه الأخلاق فى مختلف الزُّمَر البشرية تُزَوِّدانا بجميع العناصر النافعة لفَهْم تكوين مبدأ الخير والشرِّ تكويناً حقيقيًّا غيرَ مكترثين لمُجَرَّدات ما بعد الطبيعة .

وبالأخلاق نَقْصِد ، كما يُصْنَع على العموم ، مجموعةً من القواعد التى تَصْلُح أن تكون دليلاً لسلوك الموجودات التى يَضُمُّها مجتمع .

وذلك التعريفُ يُطَبَّق على المجتمعات الحيوانيـة كما يُطَبَّق على المجتمعات البشرية ، والمُشابَهاتُ بينهما كثيرةٌ ، فقد أصاب مسيو فاغِه فى قوله إنك تجِد لدى الحيوانات فضائلَ فَضْلاً عن الغرائز ، فالحيواناتُ تَعْرِف أن تَضْبُط اندفاعاتِها ، وهى ذاتُ صفاتٍ فردية واجتماعية ثابتة إلى الغاية .

ومَحَبَّةُ الغَيْر فى الحيوانات نامية جِدًّا ، وإذا ما سِرْنا مع بعض المؤلفين فعَدَدْنا هذه الصفة من أعظم الخصائل الخُلقية وَجَدْناها متقدمةً فى الحيوانات كثيراً ، والحيواناتُ تُؤَلِّف جماعاتٍ لحماية نفسها ولتعاونها ، وهى تَضَع أرصاداً لا تتردَّد فى عَرْض نفسها للخطر ، ومما ذكره دَارْوِينُ أمر غِرْبانٍ غَدَتْ من العُمْيِ فتموتُ جوعاً لو لم يَأْتِ رفقاؤُها لها بالغِذاء ، ومما رآه لامارْكُ وجودُ صِيقانٍ تُعيد بناء وُكْنِ أفراخٍ مجاورة لِما كان من هَدْمه ، فأعمالٌ مثلُ هذه مما لا يُحْصِيها عَدٌّ .

وللحيوانات جَنَّاتُهَا وأبطالها ، وقلما تأتى الحيواناتُ أفعالاً معدودةً غيرَ خُلُقيَّة لدينا ، ويُذْكَر من الحيوانات ، مع ذلك ، طائفةٌ ، كالقوقِ ، تَضَع بَيْضَها فى أوكار غريبة اجتناباً لصنع وَكْرٍ لها ولتربية صِغارها ، ومن عادات بعض النمل استعبادُ حَشَرَاتٍ أخرى ، وليس جميع هذه الموجودات الصغيرة أقلَّ قَسْوَةً منا فى حروبها ولا أقلَّ مهارةً منا فى تبديل خِطَطِها فى القتال بحسب الأحوال .

وأخلاقُ المجتمعات الحيوانية شديدةٌ جدًّا ، فالفردُ الذى لا يراعى قوانين المجتمع يُقْتَل أو يُطْرَد من فَوْرِه ، ولا مبالغةَ فى القول إن أخلاق الحيوانات ، كما يلوح ، أرفعُ من أخلاق الإنسان فى كثير من الأحوال ، ولأخلاقِ الحيوانِ ، على كلِّ حال ، مَزِيَّةُ العَطَل من الغرض ، مع أن الأخلاق عند علماء اللاهوت والفلاسفة ، ككَنْتَ مثلاً ، ليست كذلك لاستنادها إلى إلهٍ يكافئُ ويجازى .

والأخلاقُ عند الحيوانات ، كما هى عند الإنسان ، تتطور وَفْقَ مقتضيات البيئة والأحوال ، فلم يَصِلْ جميعُ أنواع النَّحْل إلى درجة واحدة من الأخلاق ، والباحثُ إذا ما أنعم النظر فيها أبصر مرحلة الانتقال التدريجىِّ من حياة الأَثَرَة إلى التضامن الاجتماعى .

وتلك الأنواع ، عند ما تأخذ فى التضامن ، تظلُّ مبادئها الخُلقية على شىء من التذبذب ، وهى لا تَصِلُ إلى مرحلة الثبات إلا حين تكون بالغةً درجةً رفيعة من التطور ، فالزَّنابيرُ التى كانت تَحْيَا ، فى الأصل ، حياةَ انفراد ، لم تَنْتَهِ إلى أحوالها المُعَقَّدَة إلا ببطوء .

وفى النحل التى تقدمت فى تطورها كثيراً تُبْصِر الشعورَ بالواجب ناميًا جدًّا ، فهى شديدة الاحترام لمَلِكتها فتطيعها بإخلاصٍ وتطيعها مختارةً إلى درجة الهلاك

فى سبيل الدفاع عنها ، ولا يمنعها هذا الاحترامُ من إساءة معاملتها عند ما تُقصِّر فى القيام بواجباتها ، حتى إنها ترضى بقتلها ، والقتلُ إذ يُعَدُّ أمراً خطيراً فإنه لا يُنَفَّذ إلا على وجه جَمْعِيّ .

والواجبُ هو آيةُ الحياة لدى النحل ، فالفردُ يُضَحِّى بنفسه بلا انقطاع فى سبيل مصالح المجتمع ، وشعورُ بالتضامن مثلُ هذا مقصورٌ ، مع ذلك ، على كلِّ خَلِيَّة ، فلا يتردد نحلُ الخلِيَّة فى الهجوم على النحلايا الأخرى لزيادة ميرَتها ، ولم يكن غيرَ هذا ما كان يقع عند أمم القرون القديمة ، ولا سيما الإغريق ، وذلك حين كان التضامن لديها لا يَعُمُّ أبناءَ المدن الأخرى ، وحين كان لا يُتورَّع من الاستيلاء على أموالها .

وفى مجتمعات النَّحْل ، حيث يكون التضامن كثيراً كما رأيتَ ، لا مكان للكُسالَى ، فلذلك ترى مجلس الخلِيَّة يُقرِّر ، فى الحين بعد الحين ، قتلَ ذكورِ النحل عند ما تصبح غيرَ نافعةٍ فتطلب العيشَ بلا عمل .

وجميعُ تلك الأعمال وما ماثلها ، كالتغيير فى بناء مساكنها وفى جَمْع أقْوَاتِها تَبَعاً للأحوال ، أى القدرةُ على تبديل السلوك بتبدل الهَدَف ، أى ما يدلُّ على قوة الإدراك ، مما حَفَز كثيراً من المؤلفين ، ولاسيما الأستاذَ العَلاَّمة مسيو غَاسْتُون بُونْيِه ، إلى القول بوجود إدراك لدى الحشرات ، وإن كنتُ لا أعتقد إمكانَ قياس هذا الإدراك بإدراكنا ، وفى غير كتابٍ بَيَّنْتُ الأمور التى يختلف بها المنطق العقلىُّ عن منطق الحياة والمنطق العاطفىِّ ، فبهذين المنطقين الأخيرين يَسِيرُ تطور الموجودات الدنيا .

وإذا كانت أخلاق الحيوانات تشابه أخلاقَ الإنسان مشابهةً وثيقة فى بعض

الأحيان مع اختلاف قابلياتهما العقلية كثيراً فلقيام الأخلاقين على منطقين لا عقليين مشتركين بين جميع المخلوقات العُلْوية والسُّفلية ، فالإنسان ، وإن كان يختلف عن الحيوانات اختلافاً عظيماً فى ميدان العقل ، يَقْرُب منها فى ميدان العاطفة والحياة .

ويساعد جهاز الحياة الجَمْعِيَّة فى الحيوانات على إثباتنا أن الضروراتِ الاجتماعيةَ هى المصدر الحقيقىُّ للأخلاق وأنها لا مَحِيصَ عنها فى المحافظة على هذه الأخلاق .

ومن شأن الأمور المذكورة والأمور التى سيأتى بيانها إبداء آراء فى الخير والشرِّ على وجه يخالف آراءَ علماء الأخلاق والفلاسفة ، فالحقُّ أن الأخلاق لا تكون مُعَقَّدَةً فى غير الكتب .

٢ — أخلاقُ المجتمعات البشرية وتقلبُها وثباتُها

بما أن الضروراتِ الاجتماعيةَ مصدرُ الأخلاق وَجَب تَرَقُّب اختلاف الأخلاق باختلاف تلك الضرورات ، أى بحسب الأمم والأجيال وبحسب مختلف الطبقات التى تتألف الأمم منها أيضاً .

ورأىٌ كهذا ليس رأىَ مُعْظم الفلاسفة ، ولا سيما كَنْتَ الذى عَدَّ الأخلاق سُنَّةً طبيعية لا تبديلَ لها .

قال كَنْتُ : « إن السُّنَّةَ الخُلقية أمر شامل ، أى إنها صالحة لكلِّ ذى عقل فضلاً عن الإنسان » .

ومع ذلك ، وخلافاً لذلك الرأى ، كان بعض المفكرين قد رَأَوْا تحول الأخلاق فى غُضُون الأزمنة والعروق ، ولكن من غير أن يدركوا السبب .

وليس بمجهولٍ قولُ پَسْكالَ الرائعُ الآتى حول تحول مبادىء الفضيلة والرذيلة بحسب الأماكن والعروق :

« لا تكاد تجد أمراً عادلاً أو جائراً لا يتغير فى جوهره بتغير البِيْئَة ، فتقلبُ ثلاثُ درجاتٍ فى ارتفاع القطب جميعَ الفقهِ رأساً على عَقِب ، ومن شأن خَطٍّ لنصف النهار أن يُقرِّر الحقيقة ، ومن شأن قليلِ سنواتٍ أن تُبدِّل القوانين الأساسية ، فللحقوق أدوارُها .

« . . . وتُبْصِر بين أعمال الفضيلة مكاناً للسلب وسِفَاحِ ذوى القُرْبَى وقتلِ الأبناء والآباء » .

وليس تَغَيُّرُ الأخلاق ، الذى استوقف نظرَ ذلك المفكر الشهير ، تابعاً لهوَى الناس كما لاح أنه يَعْتَقِد ذلك ، فذلك التَّغَيُّر ينشأ عن ضروراتٍ صادرة عن تَغَيُّر الحياة الاجتماعية ، فمن الطبيعىِّ أن تكون الجريمة عند أناسٍ فضيلةً عند الآخرين إذَنْ .

وكان الشعب الصائد الدائمُ الحركة يُضْطَرُّ إلى قتل الطاعنين فى السنِّ من أبنائه أو تركِهم وحدَهم عندما يَعْجِزُون عن اتِّباع انتقالاته ، ثم صارت هذه الضرورة قانوناً خُلُقِيًّا بحكم الطبيعة ، وكان ذبح الفتاة البريئة لنيل ريحٍ ملائمة من الآلهة ، كما حدث لإيفيجينى بنتِ أغا ممنون ، كثيرَ الملاءمة للأخلاق لاقتضاء المصلحة العامة إياه ، وكان تعدُّد الأزواج من الذكور ، الذى يُعَدُّ جنايةً يعاقَب مقترفها بصرامةٍ عند مُعْظم الأمم المتمدنة ، نظاماً اجتماعيًّا ضروريًّا لدى بعض أمم آسية التى يَقِلُّ عدد النساء فيها ، وتجد فى ديوان الهند الأكبر المعروف بالمهابهارتا أن أبناء الملِك پاندو الخمسةَ تزوَّجُوا دروپدِى الحسناء .

والأمثلةُ على تَغَيُّر الأخلاق لا تُحْصَى ، ومنها ، أيضاً ، عادةُ الزواج بالأخت

التي كانت شائعةً لدى كثير من الأمم في القرون القديمة ، وعادةُ قدماء البابليين في فضّ أجنبيّ لبكارةِ الفتيات في معابد ڤينوس قبل الزواج بهنّ .

والأخلاقُ إذ كانت مرتبطةً في الحال الاجتماعية كان لكلّ أمة أخلاقٌ مناسبة لتطورها بغيضةٌ لدى الأمم التي جاوزت تلك المرحلة من التطور ، ومن ذلك أخلاقُ الأناميين الذين يرَوْن مجازاةَ جميع أقرباء القاتل ، ومجازاةَ سكان قريته عند عدم وجود أقرباء له ، ومصدرُ هذا المبدأ ، كما ذكرتُ في كتاب آخر ، عدمُ تخلّص الروح الفردية من روح المجموع وحيازةُ مختلف أفراد القبيلة لشعور اجتماعيّ واحد ، فما كان ليُوجَدَ عندهم سوى حقوق جَمْعيَّة لا فردية .

ولا تُشْتَقُّ الأخلاق من مقتضيات الحياة لدى الأمم فقط ، بل تُشْتَقُّ من سَجِيَّتها أيضاً ، فلا يمكن الأممَ ، والحالةُ هذه ، أن تَسِير على نمَط واحد في مختلف الأحوال ، فالروسيُّ والإسبانيُّ والإنكليزيُّ وإن كانوا ذوي دِيانة واحدةٍ وقواعدَ خُلقيةٍ متماثلةٍ تقريباً يَسِيرُ كلُّ واحد منهم على خلاف الآخر في الأحوال الواحدة .

ولا تُشاهَدُ تقلباتُ الأخلاق في الأمم المتباينة وحدَها ، بل تشاهَدُ ، كذلك ، في الأمم الواحدة بحسب أوْجُهِ تاريخها المختلفة ، ولا مِراءَ في هذا التحول الذي يقع ببطوء لِتطوُّرِ المشاعر بسرعة أقلَّ من سرعة تطور العقل ، فقد زال الرِّقُّ والذبح في الملاعب وكلُّ مظاهر الوحشية لدى الرومان مقداراً فمقداراً ، ومما يتعذر في الوقت الحاضر ظهورُ أمراءَ من طِراز هنري الثامن وألِكْسَنْدِر السادس وسِيزَار بُورْجيا ، ومن النادر أن يَحْرُق الفاتحون في زماننا أسْرَاهم أحياءً أو أن يَفْقَأوا عيونَ هؤلاء الأسْرَى وَفْقَ عادة بعض الأمم في القرون القديمة ، فعندما حدَث ذلك في حروب البلقان الأخيرة قامت أوربة وقعدت غضباً ، حتى إن الوحشيةَ الموروثة تَبْدُو أقلَّ

شِدَّة من قبل فى زمن الثَّوْرات والحروب حين تزول الزواجر الاجتماعية ، فلا يَجْرُؤ فاتحٌ أن يُبِيد بالسيف جميعَ سكان المدينة المقهورة .

ولا تُسْتَنْتَج من تَغَيُّر الأخلاق فى غُضُون العروق والزمان قِلَّةُ ثبات هـذه الأخلاق ، فالأخلاقُ ، بالعكس ، كثيرةُ الثبات فى دور مُعَيَّن ، ويمكن أن تُقَاسَ الأخلاقُ بأنواع ذوات الحياة الثابتـة فى أثناء مشاهداتنا لها مع أنها تتحول على مَرِّ الأجيال .

وما يَقْضِى به الفلاسفةُ من مَقُولاتٍ إذ كان عِنْوَانًا لمقتضيات أحد الأدوار فإنه يبدو ثابتًا لا يتغير ما ظَلَّت هذه الضروراتُ ثابتةً فى قرون ، فالأخلاقُ تَبْقَى مطلقةً فى زمن مَعَيَّن إذَنْ ، وهى إذا ما نُظِر إليها من خلال الأزمنة ظهر تَحَوُّلُها ، شأنُ مُعْظم الحقائق كما رأينا .

ويبدو صواب المبادىء العامة المعروضةِ آنفًا بأوضحَ مما تقدم فى الفصول التى خصصناها لدراسة أُسُس الأخلاق الخيالية وأُسُسِها الحقيقية .

الفصل الثالث

العوامل الوهمية فى الأخلاق

١ . تقسيم أسس الأخلاق ــ ٢ . الدين والأخلاق ، مصادر الشعور الديني والشعور الخلقي ــ ٣ مبادئ مابعد الطبيعة فى الأخلاق ــ ٤ . أوهام علماء الأخلاق فى الفضيلة والرذيلة ــ ٥ . العلاقات بين التعليم والأخلاق ــ ٦ . ضعف قيمة الأخلاق القائمة على العقل والعلم

١ ــ تقسيم أُسُس الأخلاق

ما فَتِئَ الفلاسفة وعلماء اللاهوت ، منذ القرون القديمة ، يبحثون فى أُسُس الأخلاق ، فبالتتابع ذُكِرَت الدِّيانة والمنفعة والسعادة والعِلم وعناصرُ أخرى كثيرةٌ أساساً للأخلاق .

و بعض هذه العوامل مصنوعٌ و بعضٌ آخرُ منها حقيقيٌّ ، ومن هذه العوامل ما هو ذو تأثير بالغ فى بعض الأحيان مع أنه مصنوعٌ كالدِّيانات مثلاً ، فلا يكون تقسيمنا مطلقاً إذَنْ ، وهو لا ينفع لغير تسهيل الوصف ككل تقسيم .

وفى هذا الفصل نبحث فى الأُسُس الوهمية للأخلاق ، ثم نُتْبِعُه بالبحث فى العوامل الحقيقية .

obeikandi.com

٣ — الدينُ والأخلاق ، مصادرُ الشعور الدينيّ والشعور الخُلقيّ

الدِّيانةُ هي أهمُّ أُسس الأخلاق المَدْرُوسة ، وكثيرٌ من الناس في الوقت الحاضر يَعدُّون الدِّيانة النَّاظِمَ الرئيسَ للسلوك .

وقلَّما كانت الديانات القديمة تُعْنَى بالتعاليم الخُلُقيَّة ، وكان سلوك الناس فيما بينهم يَدَعُ الآلهةَ غيرَ مكترثة ، وكان أمرُ مصرَ شاذًّا من هذه الناحية مع ذلك ، فأعمالُ الأحياء في مصر كانت تُوزَنُ بعد مماتهم بدقَّة ، فيُذَكِّرُنا حُكم أوزيريس بيوم الفصل لدى النصارى .

وتشتمل كتب اليهود الدينية على تعاليمَ خُلقية أيضاً ، وذلك مع شيء من البساطة ، وذلك لتلخيصها في الوصايا العَشْر الموجزةِ التي عُبِّرَ بها عن مناحي أناس تَألَّفَ منهم مجتمع .

وبانتصار النصرانية فقط زَعَمَ هذا الدينُ أنه صاغ قواعدَ الأخلاق الوثيقة فسيطر على حياة الناس في جُزْئيَّاتها ، ومما ذكرناه آنفاً أن النصرانية أَسْفَرَت عن تحويل مقياس القِيَم البشرية وتغيير هَدَف الحياة ، ففي الحياة الآخرة يجب أن يُبْحَث عن السعادة حيث تكون أبدية ، لا في هذه الحياة الدنيا حيث تكون السعادةُ زائلةً بحكم الطبيعة .

وبَدَت صَرامة التعاليم الدينية وقَسْوَةُ إنذاراتها وعظمةُ ثوابِها ملائمةً لنفسية شِباه البرابرة الذين كانوا يسيرون وراء اندفاعاتهم فكان يجب أن يُؤَثَّر فيهم بعُنْف ، ففي عصور الإيمان كان للأمل في الجنة والخوفِ من جهنم أنفعُ دعائمَ للأخلاق ، وأعانت مُؤَيِّدات الحياة الآخرة ووعودُها على تمدين غُزاة أوربة بعض التمدين بعد

انهيار الدولة الرومانية ، فكان لذلك من النفوذ فيهم ما لم يكن لآلهة الوثنية المذبذبة الخَلِيَّة .

ولا تزال الصِّلَةُ بين الأخلاق والدِّيانة فى النصرانية تَحْمِلُ كثيراً من الناس على الاعتقاد بإمكان قيام الأخلاق على الدين فقط ، ومصدرُ هذا الخطأ الذى لا يزال شائعاً هو الخَلْط بين الشعور الدينىّ والشعور الخلقىّ على العموم ، مع أنهما مختلفان منشأً ، وإن أثَّرَ أحدُهما فى الآخر ، أى إن كلاًّ منهما ملائمٌ لاحتياجاتٍ فى النفس مخالفةٍ لاحتياجاتٍ أخرى فيها .

فالحقُّ أن الشعور الدينىّ هو وجه من الروح الدينية فى الإنسان وأن الشعور الخُلُقىّ هو ملاءمةٌ لمقتضيات البِيئة ، والمنطقُ الدينىُّ هو الذى يهيمن على الدِّيانة والمنطقُ العاطفىُّ هو الذى يهيمن على الأخلاق .

إذَنْ ، ليس للشعور الدينىِّ ، الذى هو مظهر من مظاهر الروح الدينية التى أبَنْتُ عُمُومِيَّتَها وقُوَّتَها ، أيةُ صلة بالأخلاق التى هى من مصدر عاطفىّ ، والروحُ الدينية لا تُحْدِث الأديان فقط ، بَلْ تُحْدِث ، أيضاً ، الروحانيةَ والمعتقدَ ذا الصِّيَغ السياسية وذا المعجزات والمظاهرَ الأخرى الغريبةَ كثيراً عن الأخلاق .

وبتلك الفروق بين الشعور الدينىِّ والشعور الخُلُقىِّ يُفَسَّر السبب فى أن بعض الأفراد أو الشعوب قد يكون مُتَدَيِّناً إلى الغاية على حين يكون ذا أخلاق ضعيفة ، شأنُ أشدِّ شعوب أوربة تَدَيُّناً وأقلِّها أخلاقاً كالروس والإسبان ، وسكانُ نِيپَالَ هم أقلُّ من شاهدتهم فى رِحْلاتى أخلاقاً ، ونِيپَالُ ، مع ذلك ، أكثرُ بِقَاع الأرض احتواءً لمعابدَ خاصَّةٍ بعبادة الآلهة .

ومن العلماء الكثيري التدين ، كَمَكْس مُولَر ، مَن اتَّخذوا البُدَّهِيَّة (البوذية) دليلاً على استقلال الأخلاق عن الدين ، فقد قال مَكْس مُولَر :

« دَعَا إلى الأخلاق الفاضلة ، قبل ظهور المسيح ، أناسٌ اعتقدوا أن الآلهةَ أشباحٌ باطلة فلم يُقيموا هيكلاً حتى للربِّ غيرِ المعروف » .

ولا أرى أن يُسْهَب فى إيضاح ذلك المثل ، فالبُدَّهِيَّة هى ، بالحقيقة ، ديانةٌ بلا آلهة عند مؤسسيها ، ولكننى بيَّنْت فى فصل آخر أن البُدَّهِيَّة أُثقِلَت بآلهة كثيرة حين نفوذها فى الروح الشعبية .

والدِّيانةُ والأخلاق وإن كانتا من أصليْن مستقليْن ، يمكن أُولاهما ، كما قلنا ، أن تُؤَثِّر فى الأخرى فى أدوار الإيمان ، وذلك بطريق الخوف من العقاب والطمعِ فى الثواب ، فهنالك يكون تأثير مافى الدساتير الدينية من الوعيد كتأثير الدساتير المدنية .

ويجب ألاَّ يُعتَمَد كثيراً على نفوذ الأديان مع ذلك ، فالشخصُ الذى يكون مُتَدَيِّناً عاطلاً من الأخلاق فى آن واحد يُوَفِّق ، فى الحقيقة ، بين إيمانه وغرائزه السَّيِّئة ، طالباً العَوْن من السماء ، أحياناً ، لإتمام مُنْكَراته ، وغيرُ قليلٍ عددُ الأتقياء الذين ساروا على غِرَار لويس الحادى عشر فوَعَدوا العذراء والأولياء بثمين الهدايا نَيْلاً لعَوْن هؤلاء فى أمور غير مُسْتَحَبَّة .

ونُؤَكِّد أمر استقلال الدين عن الأخلاق فنقول إن علماء الحقوق الجزائية أبصروا ، منذ طويلِ زمنٍ ، وجودَ جُنَاةٍ قُسَاة أتقياء معاً ، فمزاجُ هؤلاء النفسىُّ مماثلٌ لنفسية أولئك اللصوص الإسبان الذين يَشْحَذُون خناجرَهم وهم يستمعون إلى

بعض الأدْعِيَة حول هيكل بعض القدِّيسين طمعاً فى نَيْل عَوْنهم ، وأُتِيح لى أن أزور فى نوفِى تارْغ الواقعةِ فى جبال تَتْرَة كنيسةً صغيرة أقامها ، على ما يُرْوَى ، لصوصٌ لمريمَ العذراء شُكراً ، وذلك لحمايتها إياهم فى أثناء مغازيهم .

وعلى ما نراه من عدم رؤية مُعظم المفكرين للفَرْق العميق بين الروح الدينية والروح الخُلقيــة أبْصَر بعض هؤلاء إمكانَ قيام مجتمعٍ بلا دين ، ومن هؤلاء بُوسُويهِ حيث قال :

« إن الأحرى أن يُحَافَظ على الدين أكثرَ من المحافظة على الممالك حِفْظاً لطَيِّب الأعمال ونجاةً للنفوس ، ويمكن المجتمعاتِ المدنيةَ ، مع ذلك ، أن تبْقَى وأن تقوم حتى فى طَوْرٍ من الكمال عند افتراض اضمحلال الدين الحق(١) » .

وعلى ماللدِّيانة والأخلاق من مصادرَ مختلفةٍ يمكن إحداها أن تؤَثِّر فى الأخرى عند ما يكون الإيمان قويًّا ، ولكن هــذا التأثير ظاهريٌّ أكثر من أن يكون حقيقيًّا .

والوهمُ فيما للدين من تأثير فى الأخلاق ينشأ عادةً عما يُعْزَى إلى الدين من الأعمال الناشئة عن مزاج الشعوب النفسيِّ ، وهــذا ما يقع عند ما يُعَبَّر الدين عن سجايا العرق التى هى أركان سلوكٍ أقومُ مما فى الكُتُب من التعاليم ، ومن ذلك أن زُهْد بعض الإنكليز وعُنْفَهم ، مثلاً ، أثَرَا فى المعتقدات اللاهوتية أكثرَ من أن تُؤَثِّر هــذه المعتقدات فيهما ، وأن اقتراف الإثم والخوفَ من جهنم وإن ظهرا عنصراً للبِيُورِيتَانِيَّة نشأت البيوريتانية عن مزاج أتباعها النفسيِّ على الخصوص

(١) انظر إلى الفصل الخامس والثلاثين من الباب الثانى من كتاب الدفاع عن التبيين لبوسويه .

ما ظلّت حيّةً بعد تلاشى إيمانهم ، وأن اليوريتانية تحوّلت من ظاهرة دينية إلى ظاهرة اجتماعية ، فلا يكادُ المسرحُ الإنكليزيُّ والقصةُ الإنكليزية يتكلمان عن العِشق بفضل اليوريتانية ، وأن بَيْعَ بعض الكتب الفرنسية ، ومنها المعتدلة ، قد حُظِر بفعلها أيضاً ، وأن كثيراً من الإنكليز ، ومنهم أحرارُ الفكر ، ومنهم بروتستانتٌ أحرار ، يحافظون على أخلاقٍ يوريتانية ولو فى الظاهر على الأقل ، فلا يوجد ، كما قلتُ ، أخلاقٌ دينية ، بل أخلاقٌ عِرْقيَّةٌ ، وليس الدين إلا ذريعةً إلى ذلك .

والأممُ إذ إنها مختلفةٌ أخلاقاً فإن الأديان تؤثّر فيها تأثيراً متفاوتاً ، فعلى ما كان من سَوْم الإسبانِ بمظالم التفتيش وتحريقهم فى المواقد عِدّةَ قرون لم يكتسبوا تلك الأخلاقَ الرَّضِيَّة المُضادَّة لِلَّهْوِ والتى هى من نِتاج الشعب الإنكليزيِّ فى الحقيقة .

وكلُّ مايقال بِوثُوقٍ فى أمر الأخلاق ذاتِ الأساس الدينيِّ هو أن لهذه الأخلاق قُوَّةَ العادات التقليدية التى يدوم عملها حتى عند عجز العقل عن الدفاع عنها ، فللأمم ، إذَنْ ، كلُّ الحقِّ فى المحافظة على آلهتها التى آلَتْ إليها من الأجداد .

ويُفَسِّرُ النفوذ الذى يكون للأخلاق التقليدية السببَ فى أن بعض الأمم ، كالإنكليز والأمريكيين ، لا يألُون جُهْداً فى المحافظة على العقائد القديمة حين يسعى فى جعلها عصريةً قليلاً ، ومما رأيناه أن كثيراً من المذاهب النصرانية عَدَل عن عَزْوِ أصلٍ إلٰهىٍّ إلى مُؤَسِّس النصرانية ، وذلك لتلاؤم العقائدُ مناحِيَ النقد العلمىِّ ، ورأى بعض المذاهب اجتنابَ الجَدَل فذهب إلى المحافظة على الاسْطُورَة الدينية ناظراً إلى فائدة الدين دون صحته ، فعلى هذا الرأى مذهبُ الذرائع الذى تكلمنا عنه آنفاً والذى سنعود إليه عمَّا قليل .

٣ — مبادىء ما بعد الطبيعة فى الأخلاق

لم تؤثر مبادىء مابعد الطبيعة ، التى جعلتها الفلسفةُ دِعامةً للأخلاق ، فى سلوك الناس قطّ ، وقد انتفع بها لتكون ذريعةً للبحث عند المُثقّفين فقط ، فيكفى أن تُدْرَس باختصار إذَنْ .

أشهرُ الأخلاق القائمة على مابعد الطبيعة هى الأخلاقُ التى جاء بها كَنْتُ ، وتدلُّ دِراسة هذا الفيلسوف الفضال ، الذى صَرَف عبقريته إلى البحث عن أُسُس الأخلاق ، على عودته السريعة إلى تأمُّلات علماء اللاهوت القديمة مع قليل تعديل .

وليس بمجهول ما أبداه كَنْتُ من الشكِّ فى كتابه « نَقْدِ العقلِ المَحْض » ، فقد أوضح فيه كيف أن معرفتنا للأمور ليست سوى تفسيرٍ ، مُقيَّدٍ بطبيعة إدراكنا ، للمُعْطَيات التى نكتسبها من حواسِّنا ، ثم صَرَّح بأن الحقيقةَ لا يُرْقَى إليها ، وكَنْتُ قد تلاشى شَكُّه عند ما تناول مسئلة الأخلاق .

و برهنةُ كَنْتَ إذا مارُدَّت إلى عناصرها الأساسية بَدَتْ على جانب كبير من السذاجة فتقوم نقطةُ الابتداء عنده على مبدأ الخير والشرِّ القديم ، والناسُ ، لاستعداداتهم الخاصة ، مُلْزَمون بإطاعة المبدأ الجازم الذى يأمرهم بصنع الخير واجتناب الشرِّ ، واختيارٌ كهذا يتطلب أن يكونوا أحراراً ، وعند كَنْتَ تكفى هذه الضرورة لإثبات وجود الإرادة فينا .

بَيْدَ أن اختيار الشرِّ ، كما يلوح ، ألذُّ من اختيار الخير فى الغالب ، فما هو واضحٌ بدرجة البداهة أن الرذيلة لايعاقَب صاحبها ، دَوْماً ، فى هذه الدنيا ، وأن

الفضيلة لا يكافأ صاحبها إلا قليلاً فى بعض الأحيان ، فلا بدَّ من وجود عالَم آخرَ تُوزَّع فيه العقوبات والمكافآت إذَنْ ، والروح هى خالدة إذَنْ .

وتَفْتَرِض ضرورةُ وجودِ عالَم مُقْبِل وجودَ حاكمٍ عادل أيضاً ، وهذا الحاكمِ هو الله .

و بتسلسل البراهين تلك يكون قد أُثْبِتَ الاختيار وخلود الروح والجنة والنار ووجود الله فى بضع كلمات .

وأدلةُ كَنْت تَنِمُّ اليوم على شىء من السذاجة وضعف الإقناع ، فإذا ماحَدَث فَرْطُ نموٍّ فى خَلِيَّاتِ ضائنِ الدماغيةِ ، وهذا غيرُ محتمل ، فاستطاع هذا الضائن أن يُبَرْهِن لم يَنْتَهِ إلى غيرما انتهى إليه كَنْتُ تقريباً ، فلا يَعْسُر عليه أن يُثْبِت بسلسلةٍ من الأدلة خلودَ روح الضأن ووجودَ إلهٍ يُجازى و يكافىء .

ومما يقوله الضَّائن أن مصير الضَّأْن حافلٌ بالجوْر والطغيان ، وأن الله إذ كان طَيِّباً إلى الغاية فإنه لم يَخْلُقها ليُجْعَل من لحومها قِطَعٌ للأكل فقط ، مع أنها عِنْوان الفضائل بدَعَتها وتسليمها ، وأن القانون الخُلُقِىَّ يقضى بأن تُعَوَّض من مصيرها الجائر ، فالضائنُ ، إذَنْ ، ذو روح خالدة ، وسيجد فى حياةٍ آخرةٍ مكافأةً له على المظالم التى ذهب ضحيتها فى هذه الحياة الدنيا .

ومن الصعب أن ندرك أن فيلسوفاً مثلَ كَنْتَ يُبَرْهن على ذلك الوجه الهزيل إذا ما نسينا أنه عاش فى زمنٍ كان الإنسان يُعَدُّ فيه كائناً ذا خِلْقَةٍ خاصَّة فُرِضَ عليه أن يستعدَّ لحياةٍ خالدة سعيدة باتبّاعه أوامرَ خالقِهِ فى الأرض .

وكان علماء ما بعد الطبيعة فى ذلك العصر يقولون إن الأخلاقَ ذاتُ كِيان واحد شامل لجميع الأمم ، والخيرُ فى مراعاة مبادئها والشرُّ فى مخالفتها .

وكانت مبادىء الأخلاق التى أملتها ما بعد الطبيعة بسيطة جدًّا ، فقد ذهب كَنْتُ إلى إمكان تلخيص الناموس الخُلُقِيِّ فى القاعدة : « سِرْ ، على الدوام ، كما لو تُرِيدُ أن يَبْدُوَ عملك مبدأ عامًّا للسلوك » ، ويمكن ضَمُّ هذه النصيحة إلى النصائح التى تَمْلأ الكتبَ الدينية كالقول : أحِبَّ قريبك كما تُحِبُّ نفسك ، وكالقول : أَدِرْ خَدَّكَ الأيمن إذا ما ضُرِبْتَ على خَدِّكَ الأيسر ، الخ .

وهنا لك علماء على جانب كبير من الفضل رَأَوْا نظرياتِ كَنْتَ فى الأخلاق واضحةً قاطعة ، فإليك قولَ بِرْتِلو سنة ١٨٦٣ فى هذا الموضوع : « يكون كَنْتُ ، بإقامته الحقائقَ الخُلُقية على أساس عقلىّ عملىّ متين ، قد مَنَحَ هذه الحقائقَ ، فى أواخر القرن الأخير ، دِعامتَها الصحيحةَ وسَافاتِها (١) الجازمة » .

واليوم أصبح من المتعذر أن تَسْتَنِدَ الأخلاق إلى النظرية القائلة بإلهٍ منتقم خالق لموجودات ناقصة يتلهّى بتحريقها فى عالَم الأبدية مع أنه قادر على خَلْقِها كاملةً ، ومما لا ريب فيه أن هذه المسئلة من أكثر المسائل إيذاءً لِأَخْيِلَةِ الدماغ البشرىِّ .

وأصاب إميل فَاغِيه فى تعبيره عن الآراء الحاضرة حَوْلَ تلك المسئلة فى الأسطر الآتية ، قال فَاغِيه :

« إذا كان الربُّ موجوداً و إذا كان واحداً كان قادراً على كلِّ شىء ، والشرُّ إذا كان موجوداً فى هذه الدنيا وجب ألاَّ يقال إن الربَّ أباحه ، لِما ليس لهذه الكلمة من معنىً مع وجود قادر على كلِّ شىء ، بَلْ يجب أن يقال إنه أراده ،

---

(١) السافة : الدماغ .

والحقُّ أن ربًّا يريد الشرَّ لا يَفْهمه العقلُ أو يكون ممقوتاً ، فالأفضلُ ألا يكون موجوداً إذَنْ . . .

« . . . ومن المؤكد أنه لا يُخْرَج من ذلك إلا بذرائعَ معقولةٍ قليلاً ، فالقولُ إن الربَّ أراد الشرَّ كامتحانٍ يمكن أن يُدْعَم إذا ما تَعلَّق بالناس ، ولكن الحيواناتِ تَألَم أيضاً ، فلا يُرَى أيُّ امتحانٍ تمانيه فيكونُ صالحاً أو شافياً أو نافعاً أو معقولاً ، والقولُ إن الشرَّ هو جزاء الخطيئة الأولى لا يؤدى إلا إلى تأخير المسئلة من غير أن يُحَوِّلها ، أىْ إلى تركها كاملة كما هى ، فإذا كان الإنسان قد اقترف الإثمَ الأول فلأن الربَّ أذِن فى ذلك ، أى أراد ذلك ، وكيف يكون الربُّ القادر على كلِّ شىء عادلاً طيباً وهو يريد أن يُذْنِب الإنسان لِيُجَازِيَه ؟ ألاَ إن الربَّ هو صانع الشرِّ فى الأرض ، هو صانع الشرِّ الخُلُقىِّ والجُثْمَانِىِّ .

« . . . والاعتقادُ بربٍّ مُجَازٍ ومكافىء مما دعا إليه علم الأخلاق على ما يحتمل ، بَيْدَ أن هذا الاعتقاد مما يُقَوِّض دعائمَ الأخلاق ، وهذا ما يجب أن يُنْظَر إليه ، أَجَلْ ، إن اعتقادَ الثواب والعقاب بعد الموت يَهْدِم الأخلاق ، وذلك لأنكم إذاما اعتقدتم هذا الثوابَ وهذا العقابَ لم تَصْنَعُوا الخير للخير ، بل تصنعونه طَمَعاً فى الحُلْوَان وخوفاً من السَّوْط ، فلا تكونون ذوى أخلاق إذَنْ ، ومن قول بعضهم : « ان أسوأ سوء فى الأخلاق هو الاعتقاد بقيام الأخلاق على المنفعة » .

٤ — أوهامُ علماء الأخلاق فى الفضيلة والرذيلة .

أوجب قديمُ الآراء فى الأخلاق إدخالَ مبدأ الفضيلة والرذيلة إليها ، وبدا هذا

المبدأ عزيزاً على كنت فزعم أنه يستنبط منه الأدلة على وجود الإله القادر على إثابة ذوى الفضيلة ومعاقبة ذوى الرذيلة .

ومن شأن وجهة النظر هذه ، القريبة من وجهة نظر علماء اللاهوت ، أن تجعل مسئلة الأخلاق أمراً بسيطاً جداً ، فالإنسان إذ كان حراً فى أعماله صدر ما يصنعه من خير أو شر عن إرادته .

واليوم لا يدافع عن تلك المبادئ التى تنم على السذاجة ، فسنرى ، حين البحث فى الأسس الحقيقية للأخلاق ، أن الأخلاق لم تكن إلا بعد أن غدت لا شعورية ، أى بعد أن تحررت من كل تأمل واستقلت عن مشاعر الخوف والرجاء التى أملتها القوانين الدينية والمدنية على الرؤوس .

والأخلاق أصبحت لا إرادية فزالت مزية إطاعتها بعد أن استقرت بدائرة اللاشعور بفعل المؤثرات الموروثة أو عوامل التربية التى درسناها فى مكان آخر .

والأخلاق الحتمية إذا لم تستقر بدائرة اللاشعور استقراراً تاماً فتردد الفرد بين الاندفاعات المتناقضة كان من الفضيلة أن يضبط ميوله الضارة ، ولكن تردده يثبت أن أخلاقه لم تصل إلى درجة الثبات بعد .

وسألت الأشخاص الذين يجادلون فى تلك البرهنة عن تفضيلهم خادماً لا يفكر فى سرقتهم على خادم يقاوم فى نفسه ميلاً إلى سرقتهم ، فكان الجواب أن الخادم الأول عاطل من الفضيلة لما ليس فيه من تلك المقاومة وأن الخادم الآخر مملوء فضيلة لما يبذله من مقاومة ذلك الميل ، ويخشى ألا يوفق هذا الخادم الآخر ، مع ذلك ، فى مقاومته فيرجح الخادم الأول عليه مع عطل الخادم الأول من الفضيلة .

ويمكن إكمال هذا المثال بمثالٍ أوضحَ منه ، وإن كان من نوع آخر ، فمن المعلوم أن راكب الدَّرَّاجة يَصِلُ بتمرينات مُكَرَّرَة إلى الاستواء عليها من غير عناء ، فإذا ما انتحلنا لغة علماء الأخلاق الذين يُرْدِفُون الفضيلةَ بالجُهد قلنا إن راكب الدَّرَّاجة حين يحافظ على موازنته فوقها بكبيرِ مجهودٍ هو أفضل منه حين ينتهى إلى درجة الاستقرار عليها بلا مجهود ، مع أنه يُعَدُّ عالِما بركوبها فى هذا الدور الثانى معتمداً على ما اتَّفق له من خُلق ثابت فى ذلك .

إذَنْ ، يجب أن نتعوَّد الفَصْلَ بين مبدأ الأخلاق ومبدأ الفضيلة ، فالقاعدةُ الخُلُقية ، كما قُلْتُ ، لا تَثْبُت فى النفس إلا حين تزول فضيلة ملاحظتها ، والواقع هو أننا نستطيع أن نقول إن الإنسان الذى يَعْقِل أخلاقه يكونُ غير مكتسبٍ للأخلاق بعد .

وهذه النظريةُ ، وإن كانت تَبْدُو غريبةً على ما يحتمل وكان صوابُها أمراً لا مِراء فيه ، رأيتُ أن أجِدَ من المؤلفين مَن يَدْعَمُونها فوجدتُ واحداً منهم فقط ، وجدتُ وِيلْيَم جِيمْس الذى تشابه آراؤه آرائى بعضَ الشَّبَه فى هذه المسألة ، فقد قال : « من الوهم المحزن أن نُدير جميع أخلاقنا الإنسانية حول مسألة الفضيلة » .

والملاحظات الآنفة الذِّكر فائدةٌ عملية لا جِدَال فيها ، فبها نَعْرِف أين يجب أن نبحث عن العوامل الحقيقية فى تربية الأخلاق غيرِ المُدْرَكة كثيراً فى الوقت الحاضر ، وتلك الملاحظاتُ تَكْشِف لنا ، أيضاً ، عن تعليم النظريين الجُدُدِ الشديد الخطر ، وتعليمُ هؤلاء يكون أعظمَ خطراً فى المستقبل مما فى الوقت الحاضر ما دامت الأخلاقُ أمراً وِرَاثِيًّا على الخصوص فضلاً عن أنها تُكْتَسَب من الحياة الحاضرة ،

فالحاضرُ يُحْدِث من أخلاق الساعة الراهنة ما هو أقلُّ من أخلاق المستقبل بدرجات، ونحن نَعِيش بأخلاق آبائنا ، وسيعيش أبناؤُنا بأخلاقنا .

٥ — العلاقاتُ بين التعليم والأخلاق

إن من أكثر أوهام الديموقراطية الحديثة استعصاءً هو أن تُفْتَرَض قدرة التعليم على تَنْمِيَة الأخلاق ، حتى إن أحد وزراء الجمهورية الفرنسية أَلَّف كتاباً ضَخْماً لِيُثْبِت فيه أن التعليم هو الوسيلةُ الصائبة لإتمام الأخلاق ، وتدلُّ أقلُّ ملاحظة ، مع ذلك ، على أنه لا علاقةَ بين المعرفة الفردية والشعور الخُلقيِّ ، فمن الممكن أن يكون الشخصُ كثيرَ الجهل كبيرَ الخُلق ، أو أن يكون ، بالعكس ، واسعَ العِلم بادِيَ العَيْب ، وفى كتابٍ آخر أوردتُ أمثلةً مشهورة فى ذلك فأَقتصرُ الآن على الإشارة إلى أن غير المتعلمين هم الذين ينالون ، على العموم ، جوائزَ الأخلاق فى الأكاديمية الفرنسية .

على أن النظرية الوهمية حَوْلَ تأثير التعليم فى الأخلاق قديمةٌ جدًّا ، فقد حاول الأَغارِقَة أيام سقراط أن يَسُنُّوا قوانينَ فى الأخلاق العقلية ، ومما كانوا يفترضونه ، وهذا مالا يزال أناسٌ كثير يعتقدونه ، هو أن الذنوبَ وليدةُ الجهل فتَسْهُل معالجتها بالتعليم ، فيكفى لبلوغ ذلك استظهارُ رسالةٍ فى الأخلاق كما يُحْفَظ كتابٌ فى الحقوق المدنية أو فى الفيزياء على ظهر القلب .

والحقُّ أن الأخلاق والتعليم أمران مستقلٌّ أحدُهما عن الآخر إلى الغاية ، ويُؤَدِّى نُمُوُّ مَلَكات النقد بالتعليم إلى زعزعة الأُسُس العاطفية والدينية التى هى قواعدُ كثير من الأخلاق .

والحقُّ أنى لا أرى من الضرورى أن أسهب بأكثر مما تقدم فى إثباتى أن المعارف التى يُكَدِّسها العقلُ عاطلةٌ من أىِّ تأثير فى الأخلاق ، فعلى من هو فى رَيْبٍ من ذلك أن يَنْظُرَ إلى أبناء الأُسْرَة الواحدة الذين تَلَقَّوْا تعليماً واحداً فى مدرسة واحدة ليرى اختلافهم خُلقيًّا فى الغالب .

٦ — ضَعْفُ قيمة الأخلاق القائمة على العقل والعِلم

تساءل الفلاسفة عن إمكان إقامة أخلاق على أُسُس عقلية ، وذلك عندما لاح أنه لا يمكن الدفاع عن الافتراض القائل بوجود ربٍّ حاكم يكافىء المُحْسِنَ و يُجازِى المُسِىء ، والعقلُ قد أدَّى إلى إقامة صَرْح المعارف الرائع ، فصار من المأمول أن يُشادَ به صَرْحٌ للأخلاق بسهولة ، فهذا وَهْمٌ من آخر أوهام الفلاسفة .

ومصدرُ الاعتقاد بأن الإنسان يستطيع أن يَجِد فى العقل جميعَ عوامل السَّيْر هو الخطأ النفسىُّ الذى بحثنا فيه غيرَ مرة والقائلُ بأن من الواجب أن يكون المنطقُ العقلىُّ وحدَه دليلَ المجتمعات والأفراد .

وظلَّ كثيرٌ من الفلاسفة والمُرَبِّين والسياسيين المعاصرين قانعين بأن العقل وحدَه هو مصدر الأخلاق ، و يَسِير هؤلاء مع الأستاذ بُوتْرُو فَيُعَرِّفون الأخلاقَ ، مختارين ، بأنها «مجموعة القواعد العقلية لسلوك الإنسان» .

وتتجلَّى درجة شيوع الوَهْم فى أن الأخلاق ذاتُ مصدرٍ عقلىّ من تَصَفُّح صفحات التحقيق التى قامت بها مجلة الرِّيڤُو لدى أشهر الفلاسفة والعلماء والكُتَّاب ، مثلِ لُورَا بُولْيُو وأَنَاتُول فرانْس وأُولَار ودُرْكيم وشارل رِيشِه وفُوِّيه و بُوتْرُو وسيآى وشارل جِيد الخ ، فقد أجمع هؤلاء ، تقريباً ، على القول بوجوب استناد الأخلاق إلى العقل .

وعلى ماوقع من الاعتماد على هذا الخطأ لم يكن هذا الخطأ عامًّا ، فقد بيَّن هنري پوانكاره الشهيرُ فى صفحاتٍ ممتازة عدمَ إمكان وجودِ أخلاقٍ علمية وأن العِلم يظلُّ عاجزاً عن تعيين قواعد سلوك الإنسان .

وسنرى فى تضاعيف هذا الكتاب أنه لا مكان للعقل فى العوامل المؤثرة فى تكوين الأخلاق الحقيقية،أى الأخلاقِ المُزاوَلة،فالدعائمُ الحقيقيةالوحيدة للأخلاق هى العناصر العاطفية المستقلة عن العقل ، فنحن ، وإن أمكننا أن نتكلم عن العِلم العقلىِّ ، لا نقدر على الكلام عن الأخلاق العقلية .

إذَنْ ، من العبث أن نبحث هنا فى مختلف مناهج الأخلاق العقليـة ، فليس لهذه المناهج أىُّ تأثير أبداً ، وهى لا تنمُّ على غير تأمُّلاتٍ وهمية[١] ، وما نال نجاحاً منها ، ذات يوم ، أكثرَ من غيره فقد أصبح مَنْسيًّا فى الزمن الحالىِّ .

وجميعُ تلك المناهج الخاصة بما بعد الطبيعة مما لا يدافَعُ عنه إلاّ إذا اكْتَشَف مبتدعوها ما تصير به مقبولةً قواعدُ الأخلاق التى يزْعُمون وَضْعَهم لها ، ولا قيمةَ لتعداد القوانين النظرية فى مثل هذا الموضوع ، وإنما الصعوبةُ كلُّ الصعوبة فى فَرْضها ، وكان النجاح يُكْتَب لكَنْتَ بفضل عَوْنِ ربٍّ مرهوب ، والارتباكُ

(١) خيل إلى جميع موجدى الأخلاق العقلية أن العقل يكفى الإنسان ليسير فى الحياة ، وتثبت العبارةالآتية التى نقلها مسيو لاشوليه من كنت أن هذا الفيلسوف المشهور أبصر ، فى نهاية الأمر ، أنه لا يطمأن إلى توجيه قواعد الأخلاق القائمة على العقل ، قال كنت :

« لدى كتاب من المفضال المرحوم سولزر يسألنى فيه : ماهى العلة فى أن المبادئ الخلقيه التى يقنع بها العقل ذات تأثير ضعيف فى العمل ؟ وقد أخرت جوابى طمعاً فى أن يكون جامعاً ، بيد أننى لم أجد سوى مايأتى وهو : أن الأساتذة لايستنبطون تعاليمهم على ضوء الحقيقة ، بل يفسدون الدواء الذى يودون أن يكون شافياً ، وذلك لتنطسهم وجمعهم من كل ناحية عوامل صالحة لحملنا على الخير » .

يثبت هذا الجواب المبهم درجة ارتباك كنت تجاه البرهان الصائب الذى وجهه إليه مراسله .

يكون عند عدم ذلك العون ، وما كان لأخلاقٍ حتميةٍ خالصةِ العقل أن تكون شافيةً حتماً .

وإذا ما سُلِكَت سبيل الغلو فأريد وضع منهاج فى الأخلاق أمكن قيام هذا المنهاج على الهوى أو محبة الغير أو الضرورة أو على عناصر أخرى ، لا على المنطق العقلىِّ قطُّ ، والشخصُ الذى ينقاد للبراهين القائمة على التأمل والعقل فقط سائراً وراءَ خيالِ كثيرٍ من الفلاسفة لا ينال أىَّ ثباتٍ خُلُقىٍّ ، ولا تُمكِّن أخلاقٌ كهذه أن تتلاشى عند أول نفحة نفسيَّة ، وعند الأشخاص الذين يزعُمون اتخاذ العقل دليلاً لهم يجب أن تُعزَى « الأعمال الصغيرة إلى الخوف والأعمالُ المتوسطة إلى العادة والأعمالُ العظيمة إلى الزَّهْو » كما قال نيتْشه .

ومن الواضح أن شأن العقل فى الأخلاق ليس صِفْراً ، بل ضعيفٌ إلى الغاية ، وهذا إلى أن المنطق العقلى ينفع ، أحياناً ، فى معارضة شعورٍ بشعور ، وفى وزن العِلَل وفى اجتناب الأعمال الخطِرة ، ولكن العقل ، وإن كان ينتفع بقوانا الخفيَّة ، لا يمكنه أن يحِلَّ محلَّ السَّجِيَّة والمؤثِّراتِ اللاشعورية التى تُسيِّرنا .

ولْنَبْحَث الآن فى الأُسُس الحقيقية التى تقوم عليها الأخلاق والتى تختلف عن الأُسُس المذكورة فى هذا الفصل .

الفصل الرابع

العوامل الحقيقية فى الأخلاق الجمعية

١ . العادة والرأى العام عاملان فى الأخلاق الجمعية ـ ٢ . مزج الأثرة الفردية بالمصلحة الاجتماعية ـ ٣ . تكوين الأخلاق فى زمر المجتمع الواحد المختلفة .

١ ـ العادةُ والرأىُ العامُّ عاملان فى الأخلاق الجَمْعِيَّة

تنشأ أخلاق المجتمعات عن الضرورات التى تَفْرِضُها البيئة ، أى عن شروط حياة المجتمعات ، وتُحْفَظُ أخلاق المجتمعات بسلطان القوانين فى بدء الأمر ، ولكنها لا تَغْدُو ثابتةً إلاَّ بعد أن تتحول إلى عادات موروثة تَدْعَمها قوة الرأى العام ، فالرأىُ العامُّ والعادةُ هما عاملا الأخلاق عند مُعْظَمِ الناس .

قال بَسْكال : « تلك القدرةُ الرائعة العَدُوَّة للعقل والتى يَرُوقها أن تسيطر عليه لتَدُلَّ على سلطانها فى كلِّ شىء أَوْجَبَتْ فى الإنسان طبيعةً ثانية ... وما الذى يَمُنُّ بِبُعْدِ الصِّيتِ غيرُ الرأى العام ؟ وما الذى يُنْعِم بالاحترام والتقديس على الناس والأعمال والأعيان غيرُ الرأى العام ؟ .. فالرأىُ العامُّ يتصَرَّفُ فى كلِّ شىء ، وهو يَخْلُقُ الجمالَ والعدل والسعادة التى هى خيرُ ما فى الدنيا » .

وحياةُ المجتمعات إذ تَنِمُّ على ملاءمتها الدائمة لبيئتها فإن الأخلاق الجَمْعِيَّة ، والرأىَ العامَّ من حيث النتيجةُ ، يتَطَوَّران بتَحَوُّل البيئةِ حَتْماً ، وتَحَوُّلٌ كهذا

إذ يَحْدُث ببطء فإن الأخلاق الجَمْعِيَّة تتغير ببطء أيضاً ، ويقع هذا التغير بسرعة إذا ما تغيرت البيئة الاجتماعية بَغْتَةً أيام الثورات وفى الانقلابات العظيمة مثلاً ، فهنالك تتلاشى المبادئ التقليدية ويعود إلى الغرائز الفطرية ، التى كانت تَزْجُرُها تلك التقاليدُ ، سلطانُها .

والأخلاقُ الجَمْعِيَّة إذ تستند إلى الرأى العامّ على الخصوص فإنها تَنْحَلُّ أيامَ الزعازع الاجتماعية القوية حين ينقطع نفوذ الرأى العامّ عن التأثير ، وقد قصّ التاريخ علينا أنباء حوادثَ مماثلةٍ للتى رواها تُوسِيدِيدُ عن جائحة اضْمَحَلَّتْ بها جميع قواعد الأخلاق .

« أريد اللهو بلا إبطاء ولم يُنْظَر إلى غير اللذة الراهنة ، وذلك عَدًّا للأموال والحياة عَرَضَيْن زائلين ، ولم يَدُرْ فى خَلَد أحد أن يسعى إلى هَدَف شريف ، لاحتمال الموت قبل الوصول إليه ، واللذةُ الراهنة وما يُؤَدِّى إليها من أىّ طريق هما كلُّ مابدا رائعاً نافعاً ، فما كان للخوف من الآلهة ولا لأىّ قانونٍ بشرىّ أن يَرْدعا إنساناً » .

ومِثْلُ ذلك ما حَدَثَ فى مُعْظَم الجوائح الكبرى ، فقد لاحظ بُوكَاسُ زوالَ جميع الفضائل الخُلقية بسرعة فى أثناء جائحة فلورانس .

وإذا ما أُريد وزنُ قوة العادات والدِّيانات فى تكوين الأخلاق الجامعة وجب الاعترافُ بأن عمل العادات أشدُّ من عمل الدِّيانات لأنها أقوى منها كثيراً ، والآلهةُ إذ كانت بعيدةً وكانت الزمرةُ الاجتماعية قريبةً بَدَتْ مقاومة الزمرة الاجتماعية أصعبَ من مقاومة الآلهة ، وزَعَم المصلحون تقويضَهم للعادات الاجتماعية باسم العقل فلم يمارسوا عملاً مستمرًّا قطّ ، أجَلْ ، يُمْكِن المصلحين أن يَقْلِبُوا

المجتمعاتِ بتخريب مُقَدَّسٍ ، ولكن سلطان الماضي لا يلبث أن يعود ، وآيةُ ذلك ما كَدَّسْناه من الثَّوْرات غيرِ النافعة في قرن واحد .

وما هو السبب في ضَعْف تأثير العقل وعِظَم تأثير العادة في تكوين الأخلاق الاجتماعية ؟ سبب ذلك هو ، أولاً : أن العادة تُشْتَقّ ، على العموم ، من الضرورات العاطفية والدينية التي هي أقوى من جميع العقول ، وسببُ ذلك هو ، ثانياً : أن العادة تستقرّ بدائرة اللاشعور حيث تَنْضَج عوامل السلوك .

ونِيتْشِه هو من الفلاسفة القليلين الذين أبصروا أن الأخلاق الاجتماعية ليست سوى عنوان العادة ، قال نِيتْشِه :

« لا أخلاقَ حيثُ لا سلطان للعادات ، وكلما ضاق نِطَاق العادات ضاق نِطاق الأخلاق ، والشخصُ الطليق عاطلٌ من الأخلاق لسَيْره وَفْقَ هَوَاه ، لا وَفْقَ العادة المستقرة ... »

« ... وتَفْنِي حياةُ الأخلاق والخِلالُ والفضائل إطاعةً للقانون وللتقاليد القائمة منذ زمن طويل » .

والعادة هي من القوة بحيث تَحْمِلنا على النزول عند حُكْمها ، ومن الصواب قول ذلك العالم :

« ... إن كلَّ أخلاق هو ضَرْبٌ من الاستبداد بالطبيعة ، وبالعقل أيضاً ، هو عكسٌ للانطلاق ... وجوهرُ الأخلاق وقيمتُها في قَسْرها المستمر » .

وفي هذا الفصل وفي الفصول السابقة بَيَّنّا أن الأخلاق ليست وليدةَ اختيارٍ أو نتيجةَ إرادةٍ إلهيــة ، فالأخلاقُ هي بِنْت ضروراتٍ أوجبتها البِيئة الاجتماعية فتَحَوَّلت إلى عادات مقداراً فمقداراً ثم استقرت بفعل القوانين بعض الاستقرار .

والأخلاقُ إذا ما ثبتت فى النفوس كانت جزءاً من الواجبات التى تكتنفنا من المهد إلى اللحد فلا نُبْصِرها فى الغالب ، وقليلون من يَجْرُؤون على السير وعلى التفكير مخالفين من يحيطون بهم، وقليلون من يكونون ذوى آراء أصلية لهـذا السبب ، وهم لا يحوزون مثلَ هذه الآراء إلاَّ باعتزالهم .

ونحن إذا ماوُفِّقْنا لِبيان ثِقَل المُؤثِّر الاجتماعىّ فإن ذلك لايمنعنا من أن نذكر وجود ماذهب إليه كَنْتُ من الأخـلاق الحَتْمِيَّة ، ولـكن مع عَزْوها إلى مصدر اجتماعىّ ، لا إلى مصدر رَبَّانى .

٣ — مَزْجُ الأثَرَةِ الفردية بالمصلحة الاجتماعية

يَخْضَع الرجل المتمـدن لقواعدِ سلوكٍ من أصول مختلفـة ، يَخْضَع للأخلاق الشخصية وأخلاقِ زمرته وأخلاق المجتمع ، وهكذا يَحُوز ذلك الشخص سـلسلةً من الأخلاق المَنْضُودَة التى يعمل كلٌّ منهـا تبَعًا للأحوال ، ولـكن من غير أن تتوافق على الدوام ، ولـكن مع تصادمها فى بعض الأحيان ، ويمكن الوطنيةَ ، مثلاً ، أن تُعَارِض الأخلاق الدينيـة ، ويمكن الأخلاقَ المنزلية ، مثلاً ، أن تعـارض الأخلاقَ الطَّبَقِيَّة كما فى الإضرابات على الخصوص، وقد تُقَارِع الأخلاقُ التقليدية الأخلاقَ التى كَوَّنَتْها النظريات الحديثة .

وإلى عوامل تلك القُوَى يُضاف نفوذ العواطف والمشاعر، ومما يَرْبُك الإنسانَ كثيراً أن يُضْطَرَّ إلى موازنةِ عواملَ كثيرةٍ كتلك .

والواقعُ أن الإنسان لايبالى بانسـجام تلك العوامل إلا قليلاً ، وهو يَدَعُ هذا الانسجامَ يَحْدُث بنفسه على العموم ، ويحافظ القانون والعادة والرأى العامُّ على

ضرب من الأخلاق المتوسطة التى هى عنوان التوازن بين مختلف القوى الفردية والاجتماعية .

وفى المسارح والروايات وحدها تقريباً تبدو المصادمات الخلقية العظيمة التى لا تفصل أحياناً كحال إديب الذى ذعر إذ علم أنه قتل أباه وتزوج أمه ، أو حال هملت الذى حمل على الانتقام لأبيه بإقناط أمه ، فلا بقاء لمجتمع بحدوث تلك المزعجات كثيراً .

وليس المصادمات الخلقية اليومية مثل تلك الأهمية لحسن الحظ ، والحياة التى تحفز الناس فى مجراها تقضى عليهم بالحركة من غير كبير تفكير ، ويسلم معظم المخلوقات بذلك بسهولة ويدعون أنفسهم تهتدى بتلقينات الساعة الراهنة .

والصادمة الخلقية الوحيدة التى تصادف فى الحياة عادة هى ماقد يكون من تناقض بين المصلحة الفردية ومصلحة المجتمع ، وليس لدى الفرد سوى أسباب بعيدة قليلة التأثير دافعة إلى وقف نفسه على المصلحة العامة ، وليس المجتمع ، مع ذلك ، من دوام ممكن بغير مزج تينك المصلحتين ، ويجب ، لمعرفة درجة الثبات فى الأمة ، ومن ثم معرفة مصيرها ، أن تعين ، على الخصوص ، الحدود التى تمتزج المصلحة الفردية والمصلحة الاجتماعية ضمنها .

ولا يكون ذلك الامتزاج تاماً إلا عند الشعوب التى ثبت مزاجها النفسى بحياة طويلة سابقة ، ففى إبان سلطان الرومان كان أقل جندى يرى تقمص عظمة رومة فيه ، وعكس ذلك حال البرابرة الذين كان يحاربهم الجندى الرومانى فكانوا عاطلين من الغرور القومى فيمثلون دور المرتزقة العاديين غير ناظرين إلى سوى مآربهم الشخصية أو مآرب زعمائهم .

وللإنكليز في أيامنا مبدأ شبيه بمبدأ الرومان ، فلا يَغفُل الواحد منهم عن مصالح بلده الاجتماعية ثانيةً ، فهو يعتقد ، على الدوام ، أنه يتكلم باسم بريطانية العظمى ويعُدُّ نفسَه في كلِّ مكان ممثلاً لأمته ، فلما بلَغ الكَپْتِنُ سكُوتُ القطبَ وأحسّ دُنُوَّ أجله كتب وصيته التي شَخَّص فيها نفسه بالأمة الإنكليزية كما يبدو ذلك من الأسطر الآتية :

« لست آسِفاً على هذا العمل الذي يُثْبِت قدرةَ الإنكليز على الأعمال الشاقّة فيتعاونون فيما بينهم ناظرين إلى الموت بمثل بسالتهم في الماضي ... ونحن إذا ما بَذَلْنَا حياتَنا في هذا العمل كان ذلك في سبيل شرف بلادنا » .

وتلك التضحيةُ تمَّتْ بلا جُهْد مادام ذلك الرائدُ الشجاع قد قرَن شرفَ بلاده بشرفه الخاصّ .

والحقّ أنه يجب ألاَّ يغيب عن البال أن المجتمع إذا كان يمكنه أن يَفرِض بقوانينه بعضَ الزواجر فإنه لا يُوَفَّق لجعل هذه القوانين محترمةً طويلَ زمنٍ عند نُمُوِّ الأثَرَة الشخصية على حساب المصلحة العامة ، أي عندما تَسِير أخلاق أفراد ذلك المجتمع باتِّجَاهٍ مخالف لاتجاه مصلحته ، والاتحادُ إذا ما كان ناقصاً ضَعُف الإخلاص للمصلحة العامة يوماً بعد يوم .

ويَهَبُ مَزْجُ المصالح الفردية بالمصالح العامة قوةً عظيمة للأمم كما قلتُ ذلك غيرَ مرة ، وقد يَحْدُث مثلُ ذلك المَزْج لدى قوم من البرابرة بفعل أحقادهم المشتركة العنيفة ، ولكن لمدةٍ قصيرة ، ومن ذلك أن كتائبَ من البلغار كانت تَنْقَضُّ بالحِرَاب على مدافع الترك القاذفة للقنابل فلا تبالي تلك الكتائبُ بهلاك نصفها لِما كان يَغْلِي في صدورها من غِلٍّ نشأ عن اضطهاد عِدَّةِ قرون ، فساد الجنديَّ

فى تلك الكتائب لا يكون من طِراز الجندىِّ الروسىِّ الذى كان يدافع فى مَنْشُورِيَة عن ضرورات سياسية تِجاه عدوٍّ مجهول لديه فلا يَمْقُته ، بل من الذين تأَصَّلت فيهم اللعنة فعزموا على الانتقام لأنفسهم بسبب ماصُبَّ عليهم من الشتائم .

وفى أيامنا يتألف من الوطنية ، أى من المشاعر والمصالح التى تشتمل عليها تلك الكلمة ، قوةٌ خُلُقيَّة عظيمة فى الأمة التى تساورها ، والوطنيةُ فى إنكلترة وألمانية وأمريكة عاملُ قدرةٍ أنفعُ من الدافع ، ولَسُرْعان ما يَأْفِل نجم الأمة التى تزول فيها عبادة الوطن .

٣ — تكوينُ الأخلاق فى زُمَرِ المجتمع الواحد المختلفة

تكلمنا عن الضرورات الناشئة عن البِيئَة الاجتماعية والمُحْدِثَة لبعض القواعد الخُلُقية التى لا غُنْيَة لحياة المجتمع عنها .

ولكن المجتمع ليس بِيئَةً متجانسة ، فهو يتألف ، فى الأزمنة الحديثة ، على الخصوص ، من زُمَرٍ مختلفة ذاتِ مصالحَ خاصَّةٍ تَنْجُم عنها أخلاقٌ مستقلة ، مباينةٌ للمصلحة العامة فى بعض الأحيان .

والمبادىء الخُلقية الضرورية لحفظ مختلف الزُّمَر الاجتماعية ، الحربيةِ والكهنوتية والقضائية والمالية والتجارية والصِّناعية الخ ، هى من القوة بحيث تَفرِض على الفرد فى بعض الأحيان تَنَزُّلاً تامًّا عن شخصيته ، والزمرةُ كلما كانت مُغْلَقَةً محدودة بَدَتْ غيرَ متسامحة تِجاه مخالفات أعضائها الخُلقية .

ويظهر إحداثُ وجوهٍ خاصَّة للأخلاق بوضوح عند النظر إلى الأفراد

الضعيف الأخلاق عادةً والذين يبدُون مُتشدّدين في شؤون زُمْرتهم ، ومن ذلك أن بعض سماسرة المَصْفق (البورصة) ، المتحللين في الحياة المادية ، يُوفُون بعهودهم الشَّفَوِيّة التي يمكن الجدال فيها عند تصفية حساباتهم مادام الأمر الذي يُصْدِرونه إلى الصَّرّاف بصوت عالٍ هو كلّ ما يَبْقَى منها ، ومع ذلك فإن تنفيذ مثل تلك العهود يُكَلِّفهم مبالغَ كبيرةً في بعض الأحيان .

ومن ذلك الأمرِ البارز نُبْصِر شأنَ الضرورة في تكوين الأخلاق ، فمن المتعذر أن تُصاغ العهود كتابةً في المَصْفَق لضيق الوقت ، والشخصُ الذي يجادل في عهوده يجعل كلّ عمل في المَصْفَق أمراً مستحيلاً فلا يَعْتِّم أن يُطْرَد من زُمْرته ، فالفقرُ أحبُّ إليه من ذلك .

وأخلاقُ الزُّمَر ، لأنها وليدةُ ضروراتٍ مهيمنة ، تكون ، في بعض الأحيان ، ذاتَ قدرةٍ وثبات أعلى من قواعد السلوك التي يَفْرِضها القانون ، وإن كانت القوانين لاتتدخل في حَمْل الناس على رعاية أخلاق الزُّمَر تلك ، وعلى ما في واجبات الزُّمَر من شِدّةٍ على العموم تجِدُها محترمةً إلى الغاية ، فمن مختلف الأمثلة نعلم مقدارَ خضوع أبعد العمال عن النظام لأوامر نقاباتهم الجائرة خضوعاً ممزوجاً بالخوف ولو أدّت هذه الأوامر إلى حِرْمانهم كلّ أجْرة .

ومما رأيناه أن قوة الأمة تقوم على مَزْج المصلحة العامة بالمصلحة الخاصة ، أي على مَزْج المثل الأعلى الجَمْعِيّ بالمثل الأعلى الفرديّ ، وتتجلّى قوة المعتقد الدينيّ أو السياسيّ أو الخُلُقيّ في حمل الفرد على خَلْط ذينك المثلين الأعليين ، أي في مباهاة الفرد بنجاح مجتمعه كمباهاته بنجاحه الشخصيّ ، فما كان للجنديّ الرومانيّ أو لجنديّ نابليونَ أن ينتظر غيرَ المتاعب والجُرُوح والموت ، وتراه ، مع ذلك ، ينتحل مَجْدَ رومة ،

أو مجدَ الإمبراطور كما لو كان خاصًّا به ، فهو لم يُضَحِّ بنفسه من أجل غيره ، بل من أجل نفسه فى الحقيقة .

والمثلُ الأعلى الجَمْعِىُّ عندما يزول لا يَنْظُرُ الفرد إلى غير مصلحته الذاتية وفائدته الشخصية فلا يَشْعُرُ بأىِّ حافز إلى التضحية بنفسه من أجل مصلحةٍ خارجةٍ عن مصلحته ، هذه هى حال الرومان حينما كانت جيوشُهم مؤلفةً من مُرْتَزِقَةِ البرابرة .

ومن الطبيعىِّ أن ينشأَ عن اتِّجاه النفس هـذا عدمُ اكتراثٍ للخير العام ، واليومَ يُعَبَّرُ عن عدم الاكتراث هـذا بالسِّلْم أو باللاعسكرية ، أى بالمشاعر التى تَبْدُو ، على الدوام ، حينما لا يُجَاوِزُ مَثَلُ الفرد الأعلى مصلحتَه الشخصية أو مصلحةَ الزمرة الصغيرة التى ينتسب إليها .

وفى هذه الحال الأخيرة تشاهَد ظاهرةٌ جالبة للنظر ، فيُرَى أن الفرد لا يُضَحِّى بنفسه فى سبيل الزُّمْرَة ، بل ينال منها ، فى مقابل بعض الروادع الخفيفة ، فوائدَ شخصيةً لا يظفر بها وحدَه أبداً ، شـأنُ المُتَدَيِّنِ الذى يَنْزَوِى فى الدَّيْرِ ليُعِدَّ فيه نجاتَه ، فما يقضيه فيه من حياة التقشف هو من أجل مصلحته الخاصة ، لا من أجل مصلحة المجتمع ، ومِثْلُ هذا أمرُ الزُّمَرِ النقابية الحديثة التى لا يطالِب أعضاؤها بغير فوائدَ شخصيةٍ غيرَ مبالين بمصالح المجتمع العامة إلا قليلاً .

إذَنْ ، يجب أن نَعُدَّ نوعين للزُّمَرِ مختلفَيْن عند الكلام عن أخلاق الزُّمر ، فأما النوعُ الأول فهو مؤلفٌ من الزُّمَرِ المخلصة للمصلحة العامة لاختلاط هذه المصلحة العامة بمصالحها الخاصة ، وأما النوع الثانى فهو مؤلفٌ من الزُّمَرِ التى يَعُدُّها الفرد وسيلةً لِنَيْل امتيازات شخصية .

وذلك التفريق هو من الأهمية بمكان ، وذلك لأن من نتائج توزيع العمل

بالتدريج زيادةَ الزُّمَر الاجتماعية التى يَحُوز كلٌّ واحدة منها مصالحَ خاصةً مناقضةً المصلحة العامة فى الغالب ، ولا نزال غافلين عن الوجه الذى يمكن الحضاراتِ أن تَبْقَى به بين مزاعمَ متباينةٍ كتلك المزاعم ، فالمجتمع وإن كان قادراً ، على الدوام ، تِجاه الشخص وهو منفرد ، ضعيفٌ جدًّا تِجاه الزُّمَر ، ومما رُئى أن الحكوماتِ أذعنت لنقابات مُوَظَّفى البريد والخطوط الحديدية والمعلمين ، ومن الواضح أننا لا نزال فى المرحلة الأولى من تلك الإذعانات التى لا تُعَتِّم أن يَمْتَدَّ مَدَاها ، لتَأَلُّب زُمَرِ جميع الطبقات ، ذاتَ حين ، على أساطين السلطة والثروة كى تنتزع ما عندهم بقوانينَ يَسُنُّها مُحْتَرِفُو السياسة الذين يعيشون بفضل الأصوات الانتخابية .

ومن المحتمل أن يَنْفَصِل الفرد فى المجتمعات القادمة عن مصالح بلده العامة انفصالاً تامًّا مكترثاً لمصالح زُمْرَته فقط ، فهنالك يتعذر وجود دستور خُلُقِىٍّ عامّ ، فلا يكون فى مثل تلك الحالة سوى قوانينَ صغيرةٍ كثيرة ملائمة لاحتياجات كلِّ زُمْرَة .

وفيما تقدم بَيَّنَّا الضرورةَ التى هى من أعظم العوامل فى الأخلاق الاجتماعية ، ولكنه يضاف إلى هذا العامل عواملُ كثيرةٌ أخرى لها تأثيرها مع أنها دونه أهمية .

وفى المجتمعات الحيوانية تظلُّ الأخلاقُ وليدةَ الضرورات وحدَها على حين ترى لدى الإنسان بعضَ المُؤَثِّرات التى هى بِنْت خياله وبنتُ اشتراكٍ خاطىء بين حوادثَ لا صلة بينها ، فهذه المُؤَثِّرات تَقُوده إلى عادات لا تُسَوِّغها أية ضرورة ، ومن ذلك أنه لا فائدةَ اجتماعية ، مثلاً ، فيما حدث فى قرون كثيرة من تحريق أناس افْتُرِضَت محالفتُهم للشيطان ومن ذبح أولادٍ على مذابح مُولَك ، فالإنسان لم يَعِشْ ، قطّ ، بلا أوهام مُؤَثِّرة فى سلوكه تأثيراً بالغاً ، ومن ثَمَّ تُبْصِر أن الأخلاق لا تَصْدُر عن مقتضيات الاجتماع وحدَها ، بل تَصْدر عن أوهامنا أيضاً .

الفصل الخامس

العوامل الحقيقية فى الأخلاق الفردية

١ . تكوين الأخلاق الفردية وشأن الأخلاق ـ ٢ . الأخلاق الفردية الفطرية ـ ٣ . شأن المنفعة فى تكوين الأخلاق الفردية ـ ٤ . شأن اللاشعور فى تكوين الأخلاق الفردية ـ ٥ . الشعور بالشرف عنوان مثالى للأخلاق الفردية .

١ ـ تكوين الأخلاق الفردية

شأن الأخلاق

ليس للقوانين المُوكَلِ إليها حمايةُ الأخلاق الجَمْعِيَّة ، التى هى وليدة مقتضيات الحياة المشتركة ، أن تُبالِيَ بالأخلاق الفردية ، وذلك كما رأينا .

وهنالك عواملُ مختلفةٌ مستقلة عن الروادع الاجتماعية تُعِينُ على تكوين الأخلاق الشخصية ، ومن أهمِّ تلك العوامل نَذْكُر السَّجِيَّةَ التى تُولَد مع الإنسان ، وكثيرٌ من الصفات الخُلقية ، كالصلاح والحِلْم والصدق الخ ، يَتَأَلَّف منه تُرَاث الأجداد فيَصْعُب اكتسابُه على وجه مصنوع ، ومن قول هُوراسَ : « يُنْجِبُ الأبُ الصالح بأولادٍ صالحين ، وما فى الثِّيران والجياد من قوةٍ فناشىء عن جنسيْهما ، ولن يَلِدَ النَّسْر الكاسر وَرْقاءَ ذاتَ حياء » .

وفى الغالب تُعرَّف السَّجِيَّة بأنها « مجموعة مُقوِّمات عقلية وعاطفية وشخصية » ، فتعريفٌ كهذا لا يُسَلَّم به إلا قليلاً لعدم تفريقه بين العقل والسجية .

فالسَّجِيَّة هى من دائرة العاطفة بالحقيقة ، وهى مؤلفة من مجموعة مشاعرَ يأتى الإنسان بها معه ، والعقلُ إذا كان يُعينُ على التفكير فإن السَّجِيَّة تُعينُ على السَّيْر ، ومن هنا تُبْصِر أن شأن السَّجِيَّة كبيرٌ فى عالَم السلوك(١) ، ومن ثَمَّ فى الأخلاق الفردية ، ولكن السَّجِيَّة ، لثباتِها ، يَعْسُر كلُّ تأثير بالغ فيها ، وإلى هذه الملاحظة ذهب أشهر علماء الأخلاق .

قال شُوبِنْهاوِر : « أيمكن الأخلاقَ أن تجعل من غليظ القلب رجلاً رحيماً عادلاً محسناً ؟ كلَّا ، فالفروقُ الخُلقية غريزيةٌ ثابتة ، وما الخبيث فى خُبْثه الموروث إلاَّ كالأفاعى بأنيابها وجيوبها السَّامَّة فلا تتخلص هى ولا هو مما عليهما إلا قليلاً جدًّا » .

وهذا الرأى الذى أبداه ذلك المفكر الشهير قد أبْدَى مثلَه أعاظمُ الفلاسفة فى القرون القديمة ، فقد قال أفلاطون : « ليست الفضيلة ثمرةً طبيعية ولا نتيجةً للتربية ، ولكن الإنسان إذا سَعِدَ بحيازتها فبلا تأمُّلٍ ، فبفضلٍ إلهىّ » ، ومن قول سقراط

---

(١) رجال العمل ، على الخصوص ، هم الذين يحسنون فهم الفرق بين السجية والعقل ، قال الجنرال مارمون : « عندما تستحوذ السجية على العقل ويكون للعقل بعض الاتساع يسار إلى هدف معين ويؤمل فى بلوغه ، وعند مايستحوذ العقل على السجية يغير الرأى والخطط والوجهة بلا انقطاع لنظر العقل الواسع إلى المسائل بوجهة جديدة فى كل آن ، ولولا تدخل الإرادة فى تلك التقلبات لتذبذب الإنسان بين مختلف الاتجاهات من غير أن يستقر على واحد منها ، وهو بدلا من أن يدنو من الهدف يبتعد عنه ، فى الغالب ، بتردده فيضل » (من كتاب النظم العسكرية للجنرال مارمون)

وأرسطو : « لا نقدر أن نكون فضلاء ولا رُذَلاَء ، فيظهر أن السجايا طبيعية ، فإذا ما كُنَّا عادلين حَذِرين الخ ، اتَّفَقَ لنا هذا منذ ولادتنا » .

ويَصْعُب عَلَيَّ أَلاَّ أقولَ بغير ذلك الرأي ، ومع ذلك يمكننا أن نرى فريقاً من الناس ، وهم أكثر الآدميين عدداً على ما يحتمل ، لم يَنْظُرْ أولئك الفلاسفة إلى أمره ، فهذا الجَمْع الكبير ذو سجايا هَيِّنَة غيرِ ذات مَنَاحٍ قَوِيَّة إلى الخير أو إلى الشرّ فيَسْهُل توجيهه .

ويقاوم ذوو السجايا القوية تقلباتِ البِيئَة ويَتَّصِفون بمزاجهم النفسى الثابت ، غير أن أولئك الذين ندعوهم بذوى السجايا الهَيِّنَة ذوو قابلياتٍ متقلبة فيُعانُون جميع المؤثِّرات الخارجية لتَقَلُّب شخصيتهم بلا انقطاع .

وتلاحَظُ تلك الحالة لدى الأمم التى لم تستقرّ روحها فلا تُحَدِّد أخلاقها القومية ما ينشأ عن الأحوال من التقلبات .

أَجَلْ ، لاترى مِنْهَاجاً قادراً على تحويل ذوى السجايا الهَيِّنَة إلى أبطال ، غير أن التربية الصالحة تَقْدِر على منحهم من الأخلاق ما ينتفعون به قليلاً فى الحياة .

والتربيةُ عند ذوى السجايا القوية تُنَمِّى الخِلاَل الطبيعية ، وهى تَمْنَح الضعفاءَ قليلاً ، وقليلاً فقط ، من النشاط الذى يحتاجون اليه ، وقَلَّما يَصْدُر عن الناس أقصى ما يستطيعونه ، ففى الناس ما يجهلون وجودَه فيهم من الممكنات فتُظْهِره التربية أو الأحوال ، ومن ذلك أن نابليون أظهر من سُمُوِّ البطولة فى الناس ما يَقْدِرون على الارتقاء إليه عند ما تُعْرَف قِيادَتهم .

نَعَمْ إن البِيئَة الاجتماعية تؤثِّر فى قابليات الأفراد ، تَبَعاً لِما يُرَى فى فضائل بعض الأعمال ومساوئها من القيمة ، غير أنه يَصْعُب على تلك المُؤَثِّرات أن تتغلب

على المُيُول الطبيعية ، وهى لا تُؤثِّر فى سوى الطبائع المُحايدة ، أى السجايا الهَيِّنة التى لا لَوْنَ لها ، فيَسْلُك صاحبُها سبيلَ الخير أو سبيلَ الشرِّ بحسب ما تسوقه الأحوال إليها .

ويَتَجلّى تأثير السجايا فى أخلاق الأمم بمثل تأثيره فى أخلاق الأفراد ، فمن المعلوم وجودُ قابليات عامّة تُعَدُّ سجايا للعِرْق ، غيرِ الصفات الفارقة الخاصّة ببعض الناس ، كعِناد الإنكليز وتَقَلُّبِ الفرنسيين وصَلَفِ الإسبان ، وتختلف هذه السجايا العامة باختلاف الأمم فتُمْلِي سلوكاً مختلفاً فى أحوال متشابهة ، وهى توجب ، من حيث النتيجةُ ، أخلاقاً متباينة مع أن المبادئ التى تُشْحَن بها الكُتُب واحدةٌ فى كلِّ مكان .

وملاحظاتٌ كتلك تكفى لإثباتنا أن تعليم الأخلاق النظرىَّ يَبْقَى، فى الغالب ، عاجزاً عن التغلب على الاستعداد الطبيعىِّ ، وماذا يَقْدِر عليه ، مثلاً ، تجاهَ أَثَرةِ الزِّنْجِىِّ وخِفّتِه وكَسَله وشَبَقه ؟

ونرى أن البِيئَة الاجتماعية ، البالغةَ القُوّةِ فى إحداث أخلاقٍ جَمْعِيَّة تدعمها القوانين ، ذاتُ تأثيرٍ ضعيف فى الأخلاق الفردية .

وقوةُ الرأى وحدَها هى التى تحول دون كونها صِفْراً فى ذلك ، فالإعجابُ العامُّ ببعض الخِلال يُنَمِّى هذه الخِلال فى الأشخاص المتصفين بها قليلاً .

وتُوَلِّد المعاركُ الحربية وتقديرُ الشجاعة خصائلَ فرديةً مختلفة كروح المبادرة وتضحيةِ المصلحة الفردية فى سبيل المجتمع الخ ، ولا يُنكِر دُعاة السَّلام الذين يَئِنُّون من الحروب فيَعُدُّون الماضىَ وجهاً من وجوه الهمجية أن وقائعَ الأجداد الضَّارِيَة

وملاحمَ القرون الأولى الفاقدةَ الرحمة أسْفَرَت عن حدوث خلال كالمبادرة والصبر والثبات ينتفع بهـا الرجال المعاصرون فى مشاريعهم العلمية والصناعية والتجارية ، ولو كانت السِّلْم وحدَها رائدة الأجداد لأدَّتْ إلى ضروبٍ من الأثَرَةِ لا تقوم بها أية حضارة .

٣ — الأخلاقُ الفردية الابتدائية

لا تتكوّنُ الأخلاق الفردية فى يوم واحد ، وهى تُشْتَقُّ ، كالأخلاق الجَمْعِيَّة ، من ماضٍ طويل ، وتختلف باختلاف الحضارة .

وكانت الأخلاق ابتدائيةً إلى الغاية فى أوائل البشرية ، حتى إنها لم تَكَدْ تُوجَد فى زمن أوميرس ، ومن العَمَى الغريب أن يُعَدَّ هذا الشاعرُ المجيد من كُتَّاب الأخلاق ، فقد كانت الأهواء تستحوذ على مُقَاتِليه فيبْدُون فائرين على الدوام ، فما كانوا لِيُحْجِموا عن ضروب الغدر والعنف والإجرام ، وكانوا يمارسون ، مع ذلك ، من الفضائل ما هو ضروريٌّ لشروط حياتهم كالشجاعة وحبِّ الوطن والأُسْرَة والقِرَى ومخافة الآلهة .

وأهمُّ عيبٍ فى مُقَاتِلي العصر الأوميريِّ هو عيبُ الاندفاع المُفْرِط الذى يَبْدُو فى جميع الفطريين ، أى إن أولئك المقاتلين كانوا عاجزين عن مقاومة ما تُمْليه عليهم غرائز الزمن .

وكانت فائدة ضبط النفس تبدو واضحةً إلى الغاية فيُنْظَرُ إلى هذه الخَلَّة بعين التقدير ، وإن لم يمارسها سوى الأقلِّين كما فى زماننا ، وكان أغارقة أوميرُسَ يعترفون بقيمة خَلَّة ضبط النفس اعترافاً تامًّا وإن لم يمارسوها قَطّ ، فقد أرادت مِينِرْفَا أن

تمدح أوليسَ حينما صادفته فى إيتاك فقالت له : « إنك ذلك الزعيمُ الحذِر وسيِّدُ حركات نفسه » .

وإذا كانت تلك الفضيلة الخُلُقيَّة لم تَعُمَّ إلاّ ببطوء لدى مُعْظَمِ الأمم فإنها محلُّ تقديرٍ كبير فى كلِّ مكان كما أقولُ مُكرِّراً ، وكأنَّ رومانَ القرون القديمة وإنكليزَ الزمن الحديث مُتَّفِقُونَ على ترديد قول هُورَاسَ : « أَجْمَلُ بالمرء أن يَضْبُطَ نفسَه من أن يجمع لِيبْيَة وإسبانية فى قبضَته » .

وما كانت أخلاق الآلهة فى زمن أوميرُس لتفوق أخلاق الآدميين ، فقد كانت تبدو ذاتَ أَثَرَةٍ وحِقْدٍ وشهوة ، ومن الطبيعىِّ أن كانت هـذه صورةً لأخلاق عصرها .

وتلك الآلهة كانت تبدو توّاقةً إلى النُّذُور ، ونَعلَم من الأُودِيسِه أن أولِيسَ وَقفَ قِسْماً مُهِمّاً من وقته على القرابين ، وكان أفلاطونُ قليلَ الاحترام للآلهة الوثنية فيلومُها على سهولة إغوائها بالمطايا ، واستطاع خلفاء أفلاطون أن يَرَوْا أن المؤمنين فى كلِّ جيل ومن أىِّ دين لم يتخذوا طُرُقاً أخرى غيرَ تلك لاستمالة آلهـة السماء ، فالإنسانُ إذا ما كان غيرَ خُلُقِىٍّ كانت آلهتُه على شاكلته .

٣ — شأنُ المنفعة فى تكوين الأخلاق الفردية .

تُؤَدِّى الملاحظات المعروضـةُ آنفاً إلى البحث باختصار فى شأن المنفعة التى استُشْهِدَ بها كثيراً فى تكوين الأخلاق .

والقولُ بأن الأخـلاقَ الاجتماعية تقوم على المنفعة هو من الحقائق المبتذلة كما يلوح ، فمن النفع الواضح للفرد أن يَحْتَرِم الفردُ القوانينَ ، فهو إذا ما انتهك حرمتَها

عَرَّض نفسه للعقوبات ، ولكن من الخطأ أن يقال بقيام الأخلاق الفردية على ذلك الأساس النفعىّ .

توصِى الأخلاقُ النفعية ، التى بُشر بها منذ زمن سقراط ، الفردَ بأن يكون فاضلاً لِما فى الفضيلة من المنافع واجتناب الموانع ، وهذا ما يُعلِّمه ، تقريباً ، فلاسفةُ الإنكليز السابقون وأصحابُ مذهب الذرائع المعاصرون ، قال وِيلْيَم جِيمْس : « يقوم العدل على ما هو نافعٌ فى سَيْرنا ، مهما كان وَجْه هذا النافع تقريباً » .

ويقوم العدل ، بحسب هذا التعريف ، على ما هو نافع ، ولكن من الذى يحكم فى الشىء النافع ؟ أفيكون الفرد أم المجتمعُ هو الحاكم ؟

يَعُدُّ المجرمون السَّرِقَ والقتلَ وما إليهما أموراً نافعة لِما يَجِدونه فيها من الفائدة ، ويَقْمَع المجتمعُ مثلَ هذه الأعمال لِما يَجِدُه فيها من ضرر له .

والمجتمعُ وحدَه هو المقياس كما هو واضح ما دام الفرد خاضعاً له ، وتكون المنفعة ، إذ ذاك ، إطاعةً لتعاليم المجتمع مما لا جِدال فيه .

بَيْدَ أن القَسْر الاجتماعىّ يتوارى فى موضوع الأخلاق الفردية ، والفردُ إذا ما اتخذ منفعتَه دليلاً وحيداً له كان ذا أخلاق هزيلة أو كان عاطلاً من الأخلاق عَطَلاً تامًّا ، ومن العبث أن يقال إنه يجب عليه أن يمارس الفضيلة لأنها تؤدى إلى السعادة ، فكلٌّ يَعْلَم أن الفضيلة لا تُوجِب السعادة فى كلِّ وقت ، وأنها تتضمن ، فى الغالب ، كِفاحاً ضدَّ السعادة .

ومقياسُ المنفعة الصِّرْفَة يُورِث أَثَرَةً وثيقة بسهولة ، وهو لا يُحْدِث أيةَ أخلاقٍ متينة ، وليس فى اتخاذ المنفعة الشخصية هادياً سِرُّ تضحية أناسٍ كثيرين بأوقاتهم وثروتهم ، وبحياتهم فى الغالب ، فى سبيلِ غاياتٍ نبيلة كقَدْح زناد فكرهم الفضّ

ومغامراتهم فى أسفار خَطِرَة وتعريض نفوسهم للهلاك إنقاذاً لأمثالهم من الموت الخ ، ويمكن أن يقال ، لشرف الإنسانية ، إن المنفعة ، أى الأَثَرَة ، لم تكن عامل سَيْرها الرئيسِ قَطّ .

ومن السهل ، إذَنْ ، أن يُدْرَك أن النَّفْعِيّة كانت عند بعض الفلاسفة على الدوام ، ككَمْتَ مثلاً ، « إنكاراً للأخلاق » .

والناحيةُ الضعيفة فى الأخلاق الدينية هى ، بالضبط ، فى أن تكون المنفعة وحدَها عاملَ سلوك ، وأىُّ شىء أنفعُ للفرد ، بالحقيقة ، من أن يفوز بالجنة ويجتنب جهنم ؟ فالفرقُ الوحيد بين الأخلاق النفعية لدى الفلاسفة والأخلاق النفعية لدى علماء اللاهوت هو أن الأولى تَجْعَل السعادة فى هذه الحياة الدنيا وأن الثانية تجعلها فى الحياة الآخرة .

٤ — شأنُ اللاشعور فى تكوين الأخلاق الفردية

كانت أخلاق الأوائل فِطْرِيَّةً إلى الغاية كما قلنا ، فكان الخير عند الشخص فى قتل عدوِّه ، وكان الشرُّ عنده فى أن يقتله عدوُّه .

وقَضَت الضرورات بالحياة المشتركة ففرضَت بعض القواعد الضرورية فى سبيل المصلحة العامة فتكاملت الأخلاق الاجتماعية رويداً رويداً ، ووُفِّقَت القوانين المدنية والدينية لتوطيد هذه الأخلاق بزواجرَ شديدةٍ أسفر عملها الرادع المُكَرَّر فى عِدَّة قرون عن جعل مراعاة القواعد الاجتماعية أمراً غيرَ شعورىّ بالتدريج ، ومن ثَمَّ أمراً سهلاً بالتدريج .

ونشأ عن تقدم الإنسان الاجتماعىّ ، ولم تَقُمْ حضارة بغير هذا التقدم قَطّ ، قيامُ أخلاقٍ لاشعورية مقبولة بلا عَنَاء مقام أخلاقٍ شعورية لا تُحْتَرَم بعضَ الاحترام إلا بعقوبات شديدة إلى الغاية .

وتطورٌ كهذا ، صحيحٌ فى الأخلاق الاجتماعية ، صحيحٌ أيضاً فى الأخلاق الفردية التى تَتَكَوَّن بدخولها دائرةَ اللاشعور ، وهـذا اللاشعور إذ كان المهيمنَ الحقيقىَّ علينا كان تكوينه بتربيةٍ ملائمة من الأهمية بمكان ، فهنالك يَحِلُّ الأدب الباطنىُّ الذى يَتِمُّ بلا عناء محلَّ الأدب الخارجى المفروض .

وأثبتت التَّجْرِبة منذ زمن طويل ، وهى أَسْنَى من إيحاء بعض المناهج العقلية العصرية ، الوسيلةَ التى يَرْسَخ بها النظامُ غيرُ الشعورىِّ .

ومبدأ تكوين النظام اللاشعورى هو مبدأُ النظام المسيطر على التربية فى جميع الحِرَف والصِّناعات حيث يكون لغيرِ الشعورىِّ شأنٌ عظيم ، ولا يقوم ذلك المبدأ على تعليم ما يجب أن يُعْمَل تعليماً نظريًّا ، بل يقوم على ما يُعْمَل فعلاً ، فيُكَرَّر هـذا العمل إلى أن يَتِمَّ أمره بلا عناء ، أى آليًّا غيرَ شعورىّ ، فعلى هـذا الوجه يكتسب العازفُ على البيانو مزاولةَ صَنْعَته ويكتسب الجندىُّ كيفيةَ استعمال أَسْلحته .

وينتقد الباحثون غيرُ الخبيرين ، مختارين ، دقائقَ تربيةِ الجندىِّ فيَرَوْنها ، بعقلهم القصيرِ ، غيرَ مفيدة ، فيسألون : ما نَفْعُ تلك الحركات المُفَصَّلة التى يُؤْتَى بها فى الثُّكْنَة أو فى الحقل على ذلك النظام المُعَيَّن ؟ وما نَفْعُ تلك الخُطَا الموزونة ؟ وما نَفْعُ ضرورة صَفِّ كلِّ شىء فى الكتيبة على وجهٍ ثابت لا يتغير ، الخ ؟ إن نتيجة جميع هـذه الحركات ، غيرِ المفيدة فى الظاهر ، هى إدخالُها إلى الرجل

عاداتٍ فى الدِّقَّة والضبط والمِنهاج وما إلى ذلك من الأمور التى يؤدى تكرارُها إلى دخولها دائرةَ اللاشعور فيه فلا تُعتَمّ أن تتَّفِق له بلا عناء بعد أن كانت تتِمّ له بعناء(١) .

ويمكن تلخيص المبادىء السابقة بأن يقال إن جميع الأخلاق الفردية أو الاجتماعية تنطوى على عُسْر فى بدء الأمر ، تنطوى على قَسْرٍ لا يُحْتَمَل إلا بعد أن يصبح غيرَ شعورىّ ، فمتى حَدَث هذا النظامُ غيرُ الشعورىّ عاد الرجل لا يكون أُلْعوبَةَ اندفاعاتِه وحُقَّ له أن يقول إنه سَيِّد نفسه بالحقيقة ، والفوضوىُّ ، وهو يعتقد حريته لطَرْحِه كلَّ رَدْعٍ جانباً ولانقياده لاندفاعاته فقط ، عاطلٌ من أية حرية حقيقية فيسيرُ كورقة الشجر التى تُحرِّكها الريح .

---

(١) تتضح فائدة المبدأ المعروض آنفاً من الأسطر الآتية التى أقتطفها من الطبعة الخامسة عشرة من كتابى « روح التربية » :

« إليك كيف يعرب عن رأيه أحد الكتاب فى البحث الممتاز القوى الذى نشر فى عدد الجريدة البحرية العسكرية (الإنكليزية) الصادر فى ٨ من مايو سنة ١٩٠٩ :

« لم يأت أحد قط بتعريف للتربية أفضل من التعريف الذى جاء به غوستاف لوبون وهو : « أن التربية هى فن إدخال الشعورى إلى اللاشعورى » ، وهذا المبدأ هو الذى اتخذه رؤساء أركان الحرب العامة الإنكليزية ركناً أساسياً لإقامة وحدة بين الرأى والعمل فى التربية العسكرية التى ترانا ذوى حاجة ملحة إليها »

« ويعرض هذا الكاتب عرضاً حسناً إلى الغاية أمر تطبيق هذا المبدأ فى تعاليم أركان الحرب الإنكليزية الذين أدركوا إدراكا تاما أن الغريزة ، لا العقل ، هى التى تسير فى ميدان القتال وأن من الضرورى تحويل العقلى إلى الغريزى وفق تربية خاصة ، فمن اللاشعور تصدر الأوامر السريعة ، ومن قول هذا الكاتب : « يجب أن تصبح البراعة ووحدة الرأى أمرين غريزيين وفق تربية ملائمة » ، فلا قول أطيب من هذا القول » .

٥ — الشعورُ بالشرف عِنْوَانٌ مِثَالِيٌّ للأخلاق الفردية

مهما تكن عوامل الأخلاق الفردية يَكُن التعبير عن الأخلاق واضحاً بأن يقال إنها شعور بالشرف .

ويمكن أن تُعَرَّف الأخلاق بالاحتياج إلى الكرامة الشخصية التى يُجْتَنَب بها بعض الأفعال وتُؤْتَى بها أفعالٌ أخرى حتى المخالفةُ منها لمصالحنا ، وذلك حِفْظاً لحُرْمة المرء وحُرْمَةِ أمثاله .

ومن مُمَيِّزات الأعمال التى تُنْجَز باسم الشرف هو أن تظلّ هذه الأعمالُ مستقلةً عن أحكام القوانين فى الغالب ، فيكون الرادعُ الخُلُقى مُمْسِكاً لحِسِّ الشرف ، وحِسُّ الشرف هذا إذا ما رَسَخ فى النفوس غدا أقوى من زجر القوانين بدرجات ، وفى موضوع الشرف وحدَه يمكن الكلامُ عن المَقُولات الحَتْمِيَّة .

والرأىُ العامُّ هو دِعامة كبيرةٌ للشرف ، ولكن هذه الدِّعامة قد تكون من القوة بحيث تُؤَثِّر خارجةً عن كلِّ أمل فى الاستحسان ، فبذلك يُجْهَل العمل المُنْجَز لارَيْب .

ويختلف الشعورُ بالشرف باختلاف الشعوب ، فبينما ترى الشرف العسكرى نامياً والشرفَ التجارىَّ قليلاً فى اليابانيين ترى العكسَ لدى الصينيين مثلاً ، وقد بلغ الشرف التجاريُّ فى الصينيين من القوة مايُدِينُهم أربابُ المصارف الأمريكية معه نقوداً بلا ضمان ، على الرغم من حَذَر هؤلاء الأرباب ، وذلك لوُثُوقهم بأن المَدِينَ إذا مات قبل الاستحقاق أَوْفَت المبلغَ أُسْرَتُه وأصدقاؤه عند الضرورة .

والشعورُ بالشرف لدى أمةٍ يكفى لمَنْح هذه الأمة أخلاقاً وطيدة عند شِدَّة

نُمُوِّه ، ونورد اليابانَ مثالاً على ذلك ، فإليك كيف يُعرِّف الأستاذُ كانينو دستورَ اليابان الخُلُقيَّ المعروفَ بالبُوشيدُو :

« لا يُوحى البُوشِيدُو بما هو أبعد من ذلك ، وهو لا يفاخر بأيِّ مُؤسِّس ، ويقوم مُؤيِّدُه الأسْنَى على الشعور الغريزيِّ بالخجل من كلِّ سَيِّئة ، فالشجاعةُ تُعَدُّ به أعلى فضيلة ، وبه يُعَد الإقدام والصبرُ واجبَى الإنسان ، وتُعَدُّ الاستقامةُ والعدالة ملازمتَيْن للبسالة الحقيقية ، ويُعَدُّ الرِّفْق صِفَةَ النفس النبيلة » .

ولا يكفى ذلك التعريف لإثبات قوة ذلك الدستور ، فقد بلغت هذه القوة من العظمة مالاَ يَتَرَدَّد معه الأشخاص فى الانتحار إذا ما اعتقدوا مَسَّ شرفهم ، وقد سَمِعْتُ من يابانيين ، على جانب كبير من التمدن ، أن مما يَشِينُ رُبَّانَ سفينةٍ تجارية تَقْبِض عليها مُدَرَّعَةٌ إذا لم ينتحر .

والشرفُ الذى أبصرنا تَحَوُّلَه باختلاف الشعوب يختلف باختلاف الطبقات والطوائف والمِهَن أيضاً ، فلكلٍّ من الجنديِّ والقاضى والصَّرَّاف والطبيب شَرَفُه الخاصُّ الذى لا يَسْمَح بانتهاكه ، وهنالك أشخاصٌ كثيرون ليس لديهم من الأخلاق سوى شرف زُمْرَتِهم .

ولا يكاد كتابٌ ضخم يكفى لبيان الأحوال الخاصة إذا ما أُريد الانتقالُ إليها من تلك العموميات ، فمن أَدِلَّاء اللاهوت الخُلُقيِّ القديم التى يتألف منها قاعدةُ سلوكِ الإكليروس ، كدليل القِدِّيس أَلْفُونْس اللِّيغُورِيِّ ، تتألف مجموعاتٌ عظيمة ، ونَذْكر ، على الخصوص ، تلك الدقائقَ التى اشتهرت بإقليميَّات پَسْكال ، فهى لا تنفع سوى المرشدين المُوكَلَة إليهم تَهْدِئَةُ وساوس شيوخ العُبَّاد المريضة .

ثم إن أولئك المتكلمين يَتَّخِذُون مناهجَ خاصةً للبرهنة فقد قال مسيو بايه :

« يُمَيَّزُ عند علماء اللاهوت بين المذهب التَّشَدُّدِيِّ المطلق الذى يقول بأنه لا يجوز انتحالُ الرأيِ إلا إذا كان وثيقاً ، والمذهبِ التَّرَخُّصِيِّ الذى يقول بالاكتفاء بالرأى المحتمل ، والمذهبِ المتوسط الذى يقول بالاكتفاء بالرأى المحتمل جدًّا ، والمذهبِ الاحتمالىِّ القائل بالأخذ بالرأى المحتمل أكثرَ من الرأى المخالف ، والمذهبِ القائل بانتحال أحد الرأيَيْن المتساويْن احتمالاً ، والمذهبِ القائل باتخاذ الرأى القوىِّ الاحتمال ولو كان دون غيره متانةً ، والقديسُ أَلْفُونْسُ هو احتمالىٌّ أو إنه يقول بانتحال أحد الرأيْن المتساويْن احتمالاً ، ولاهوتُ كِلِيرْمُون احتمالىٌّ قائلٌ بإمكان انتحال أقلِّ الرأيين احتمالاً » .

فهذه الشواهدُ تكفى لإثباتنا أن الأخلاق القائمة على علم اللاهوت ليست أقومَ كثيراً من الأخلاق القائمة على العقل ، والأخلاقُ لاتقوم ، كما قلتُ ، إلا بعد أن تصبح خارج دائرة البرهنة بدخولها دائرةَ اللاشعور ومن ثَمَّ دائرة الغريزة ، فهنالك ، فقط ، تُمَارَس بلا عناء .